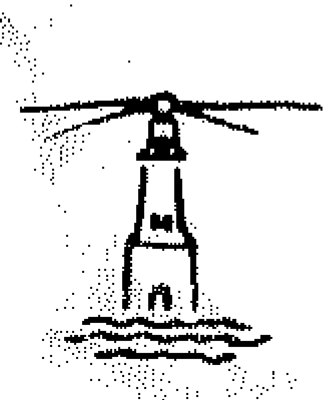
أولادنا

داڤيد كوبرفيلد

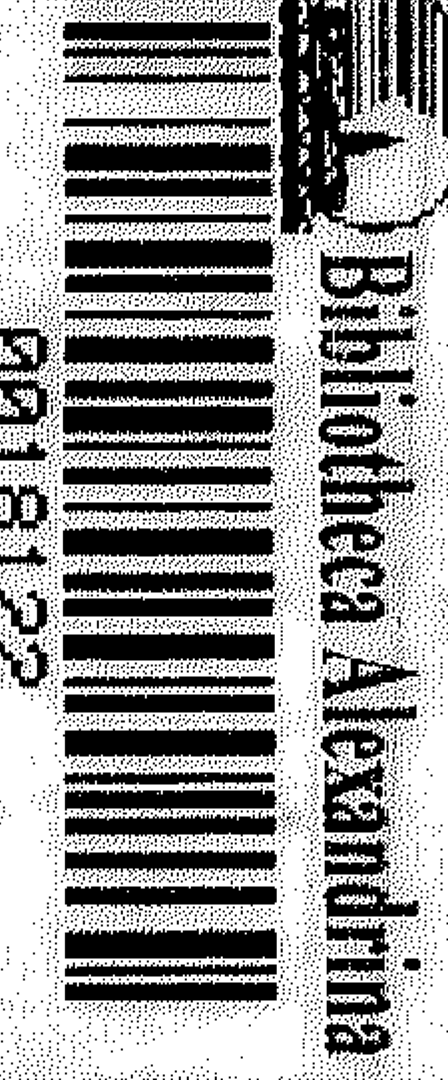
بقلم : عادل الغضبان

عن : شارلز ديكنز





دار المعارف



داڤيد كوبرفيلد

أولادنا

٢١

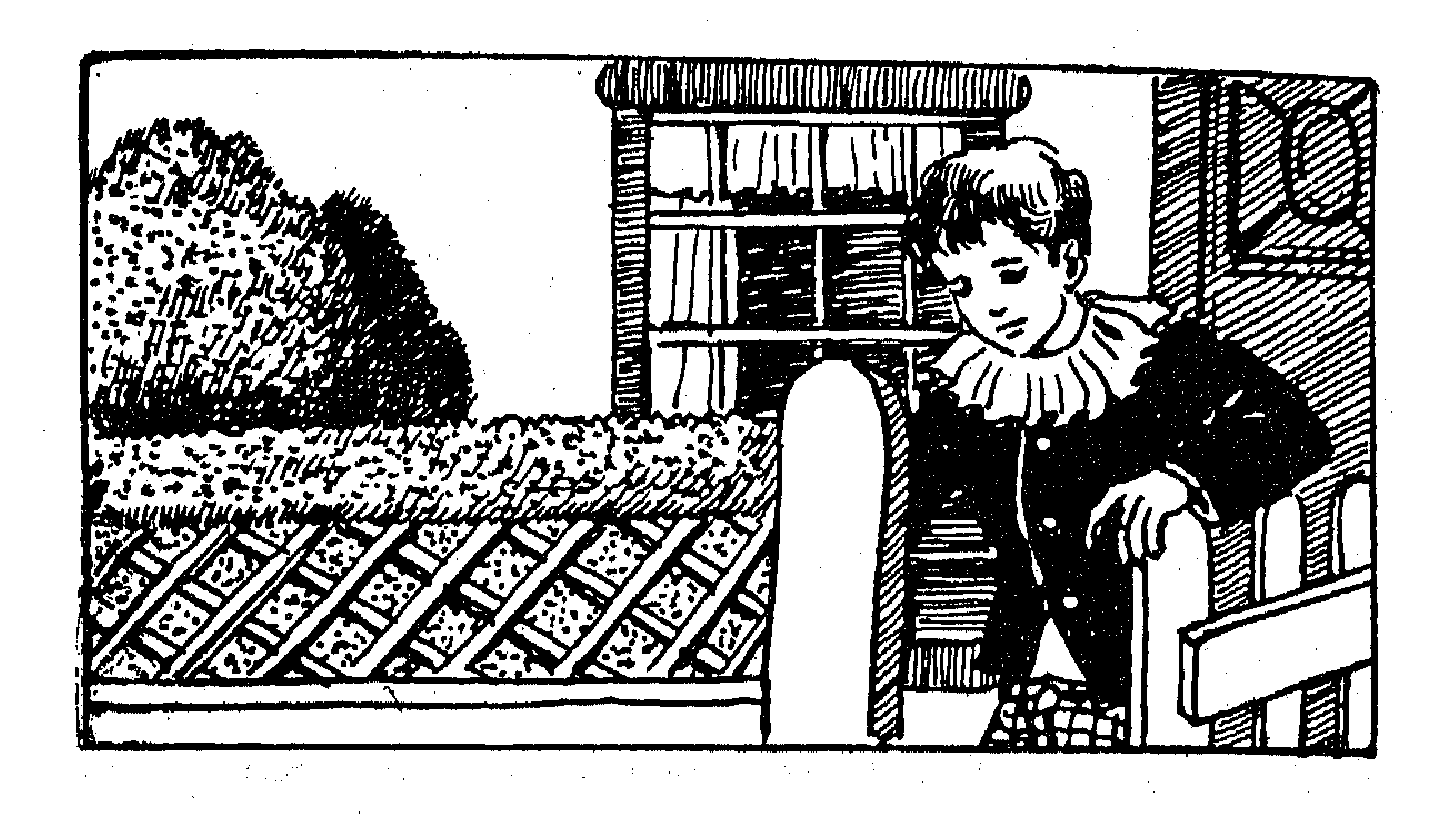
داڤيد كوبرفيلد

بقلم : عادل الغضبان
عن : شارلز ديكنز

الطبعة السادسة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.



١

وُلِدْتُ يومَ جمعة، ولمَّا انفتحتْ عيناى على نور هذا العالم، كان والدى قد أغْمضَ جَفْنَيه عنه منذ أكثرَ من ستّة أشهر. وكان أجلُّ شخص فى أسْرتنا، عمَّةٌ لوالدى تدعى «تروتوود» ولكن أمِّى كانت تسمّيها «بتسى»، وكانت هذه العمّة آنسةً عانساً تقيم فى إحدى القرى البعيدة عن مدينتنا.

ويغلُبُ على ظنِّى أنَّ والدى كان من هذه العمّة الرجلَ الحبيبَ المدلَّل، ولكنّها لم تغفر له قطّ أنه تزوّج أمّى، وآفةُ ذلك الغضب والسُّخْط أنّ أمّى كانت فى نظرها، فتاةٌ صغيرةٌ لا تصلح للزّواج، ولقد كان أبى،

وعمره ضعف عمر والدتى ، خائر الهمّة ضعيف الصحة ، فتُوفّى بعد سنةٍ من زواجه ، وقبل ستّة أشهرٍ من مولدى ، ولبث فى أثناء زواجه بعيداً عن عمّتى لا يزورُها ولا تزورُه .

تلك كانت الحالُ فى صباحِ ذلك اليوم الذى هبطتُ فيه إلى هذه الحياة .

وقبل بِضْعِ ساعاتٍ من مولدى ، شاهدتْ أمّى سيّدةً تجتاز الحديقةَ إلى منزلنا ، فحدّثَتْها النفس أنّها الآنسة « بتسى » وما كانت قد عرَفتْها من قبل ، وتجسَّم فيها ذلك الاعتقاد ، لمّا رأتها تمشى بخطواتٍ حازمةٍ ، وهى شامخةُ الأنْف ، مرفوعةُ الرأس ، فمثلُ ذلك المظهر ، لا يمكن أن يكون إلا مظهر العمّة « بتسى » .

وكان والدى قد روَى لوالدتى ، أنّ عمّته « بتسى » لا تسلُك فى معاملتها النّاس ، مسلك بقيّة البشر ، وثبت فى ذهن والدتى أنّ القادمة عليها هى العمّة « بتسى » نفسها ، عندما رأتْها لا تتوجّه إلى الباب ، كما يفعل جميع الناس ، بل تنعطفُ إلى النافذة ، وتضَعُ أنفها على زُجاجها حتى انقلبَ أنفاً أبيضَ مُنْبسطاً .

فنهضتْ أمّى ، وكانت شابّةً فتيّةً حييّةً ، واختبأت وراءَ مقعدٍ فى زاويةٍ من زوايا الغرفة ، وبعد أن أجالت العمة « بتسى » نظرها فى جوانب الغرفة ، من وراءِ زُجاج النافذة ، وقع بصرُها فى آخر الأمر على

أمّى ، فأشارت إليها أن تفتحَ الباب لها ، شأنَ مَنْ تعوّدَ الأمر والنّهى ، فأذعنتْ أمّى للإشارة ، وفتحت الباب ، فابتدرتها العمّة قائلة :

ــ « أعتقدُ أنك زوجة "داڤيد كوبرفيلد" . » فقالت أمّى بصوتٍ خافت :

ــ « نعم يا سيدتى ! » فقالت السيّدة :

ــ «أنا الآنسة "تروتوود" ويخيّل إلىّ أنكِ سمعت بى ! » فقالت أمّى :

ــ « نعم يا سيّدتى ، لقد سرّنى كثيراً أن أسمعَ عنك كريم الحديث . » فقالت العمّة متعجرفة :

ــ « إذن يسرّك اليوم أن ترينى . » فأطرقتْ والدتى برأسها ، ورجتْها أن تدخلَ المنزل فدخلت ، وسارتا معاً إلى الغرفة التى تركتها والدتى منذ قليل ، وجلستْ كلٌّ منهما فى مقعدٍ ، ولزمتا الصّمت الطويل . وكانت العمّة تحاول أن تُخْمِد نار السُّخطِ المتأجّجة فى صدرها ، أمّا أمّى فقد ضاق بها الصبر ، فانهلّت الدموع من عينيها . فقالت لها العمّة بصوت جَهْوَرِىّ :

ــ « وعلامَ البكاء ؟ اخلْعى عنك قُبَّعتَك أيّتُها الطفلة حتى أتمكّن من أن أراك . » وملأ الخوفُ قلب أمّى ، فما استطاعت إلاّ أن تلبّى هذا المطلبَ بيدٍ مرتجفة ، فانفلت معها شعرها الرّسيل فقالت العمة :

ــ « آه يا إلهى ما أحْدَثَ سنّك ! إنك حقّاً لطفلةٌ صغيرة . »

والواقعُ أن أمّي كانت في مقتبلِ الشباب ، غير أن مظهرها كان يُوهم الرّائي أنّها أصغر سنًّا مما هي عليه ، فطأطأت المسكينة رأسها ، كأن حداثةَ سنِّها ذنبٌ ارتكبته ، وقالت وهي تَشْرَقُ بالدمع ، إنها على صِغَرِ سنها قد أصبحت أرملة ، وسوف تُصْبِحُ أمًّا . ثم خيّم السكوت على المرأتين ، فرفعت أمّي بعد قليل نظرها ، فإذا العمّةُ جالسةٌ أمامَ الموقد جِلْسةَ المتذمّر ، وقد كشفَتْ عن ساقيها ، وشبكت يديها على رُكْبتيها ، ووضعت قدَمَيها فوق حافةِ الموقد . وعلى حين فجأة ، رفعت العمّة رأسها وقالت :

— « ممّا لا شكّ فيه أنك ستلدين أنثى . . . نعم أنثى ما في ذلك ريب . . . نفسي تحدّثني بأن المولود سيكون أنثى . . . فاعلمي يا طفلتي ، أن هذه الأنثى ستكون منذ يوم ولادتها . . . » فتشجّعت أمّي وقاطعتها قائلة :

— « أو أن هذا الغُلام . . . » فقالت العمة مُغْضَبة :

— « قلتُ لك إن نفسي تحدّثني بأن المولود سيكون أنثى . . . لا تقاطعيني . . . أريد أن أكون صديقةَ هذه الأنثى منذ يوم ولادتها . . . وسأكون رائدتَها . . . وأرجو أن تسميها " تروتوود كوبرفيلد " . . . هل كان " دافيد " رجلاً كريمَ الأخلاق معك أيتها الطفلة ؟ . . . وهل كنتما على وفاقٍ ووئام ؟ » فقالت أمّي :

— « كنّا من أسعد الناس ، وكان معي طيّبَ القلب كريمَ الخُلُق ! »

ـ « لقد كنت يتيمةً أليس كذلك ؟ »

ـ « نعم يا سيّدتى . »

ـ « ومربّية أطفال ؟ » فقالت والدتى فى سذاجةٍ وصراحة :

ـ « كنتُ مساعدةً لمربّية أطفال ، فى منزلٍ كان المستر "كوبرفيلد" كثيرَ التردُّد عليه ، فطلب منى أن يتزوّجنى فقبلت وتزوّجنا . » فقالت العمّة ونظرها لا يزال عالقاً بلَهَبِ النار فى الموقد :

ـ « يا لكِ من مسكينة ! أتعرفين أن تقومى بعملٍ من الأعمال ؟ » فقالت أمّى :

ـ « كان المرحوم زوجى يعلّمنى ما أجْهَل ، ويساعدنى فيما يَشُقُّ علىّ . . . ولكن الموت اختطفه منى . . . » وبدأتْ أمّى عند تذكار والدى ، تَزْفِرُ وتَشْهَق ، فقالت العمة فى صوتٍ رقيق :

ـ « حسن . حسن . »

وازداد ألمُ المخاض على والدتى فانصرفت إلى غرفتها ، وجاء الطبيبُ بعد قليل يعُودُها ويُعْنَى بولادتها ، ولما فرغ من عمله ، لقيته العمة عند باب الغرفة ، وسألته وهى مكتوفةُ الذّراعين :

ـ « كيف حالُها ؟ » فقال الطبيب :

ـ « على خير حالٍ يمكن أن تكون عليه أمٌّ حديثةُ السنّ مثلها . ولا أعارضُ فى أن تَرَيْها إذا شئتِ . » فقالت العمّة :

ـ « أسألكَ عنها هى كيف حالها ؟ » فقال الطبيب :

ـ « لقد حدّثتُك ياسيّدتى عن حالها ، وقلتُ لك إنها بخير وسلامة . »

فقالت العمّة متضايقة :

ـ « قلتُ لك : هى . هى . أى الطفلة المولودة . » فقال الطبيب :

ـ « عُذْرًا يا سيّدتى ، لقد كنتُ أظنّ أنك تعلمين . . . إن المولود غلامٌ ذكَر . » فلم تُحِر العمّة جواباً ، بل تناولت قبعتها ولبستها وخرجت من المنزل إلى غير رَجْعة .

وها أنذا أقصّ قصّة حياتى ، فإذا رجعتُ بالذاكرة إلى أيام طفولتى ، بدت لى شخصيّتان واضحتا المعالم كُلّ الوضوح ، إحداهما أمّى بشعرها الجميل ، وشبابها الغَضّ ، وثانيتهما خادمتُنا « بيجوتى » بعينيها السوداوين ، وخدّيها الأحمرين ، وذراعيها العَبْلتَين . ويخيّل إلىّ عند هذه الذاكرة ، أنى أرى أمّى والخادمة تداعبانى معاً ، وأتذكّر إصْبع « بيجوتى » المملوء بثقوب الإبرة ، وهو ممدود إلىّ ليساعدنى على المشى .

وإنى لأتذكّر أشياءَ أخرى من طفولتى : فهناك منزلنا والحديقة وبُرْج الحمام الخالى من الحمام ، ومأوى للكلاب وليس فيه كلب واحد ، وعددٌ من الدّجاج تَذْرَع صَحْنَ الدار ، وديكٌ لا يألو ينظر إلىّ ويقفز من موضع إلى موضع ... وهناك مطبخ « بيجوتى » وأبْهاءُ المنزل ، ولا سيّما البَهْو الكبير الذى كنا أنا وأمّى و « بيجوتى » نقضى فيه سهراتنا ،



فما كانت « بيجوتى » تفارقنا عندما نكون وَحْدنا ، وتكون هى قد فرغت من عملها أو تطريزها . وهناك المقاعدُ الخاصّة بنا فى الكنيسة ، قامت إلى جانب نافذة نستطيع أن نرى منها منزلنا ، وكانت « بيجوتى » كثيرة التطلّع منها إلى منزلنا ، لتطمئنّ على أنه ما أحْرِق ولا سُرِق فى أثناء غيابنا عنه .

وأضيفوا إلى هذه الذّكْريات ما كنتُ أشعر به فى طفولتى من سلطان « بيجوتى » علىّ وعلى أمّى ، فما كنّا نخالف لها رأياً ولا نصيحة .

وذاتَ مساء كنت أنا و « بيجوتى » وحدنا فى الغرفة ، وكنّا جالسَيْن أمام الموقد أقرأ لها قصةً من قصص التّماسيح ، وكان النّعاس قد أخذ يُداعب جفونى مداعبةً ثقيلة ، ولكننى كنت أغالبه انتظاراً لعودة والدتى حتى أحيّيها قبل أن أنام ، وكانت والدتى تتناول العشاء عند أحد الجيران ، ولست أدرى بأى سبب من الأسباب توهّمتْ « بيجوتى » وهى تستمع إلىّ وتخيطُ بعض الملابس أن التماسيح كانت صنفاً من الخضر ، وكلما بدأ النّعاس يغلبُنى على أمرى ، كانت تساعدنى على طرده وتصيح بى قائلة :

— « اقرأ لى بعضَ صفحاتٍ أخرى من قصّة التماسيح ، فما أشْوَقَنى إلى معرفة أى صِنْفٍ هى! » فأستمر فى القراءة ... وبُعَيْدَ الساعة العاشرة سمعنا بابَ الحديقة يُطْرق ، فخففنا معاً إلى فتْحه ، وكان الطّارق والدتى وقدعادت فى صُحْبة رجلٍ جاءيوصلها إلى المنزل ، وتبَيّنْتُهُ فإذا هو الرجلُ

الذى زارنا يوم الأحد الماضى ، فانْثَنَى يداعب خدّى ، ولكنّى نفرت من صوته ومن شكله ولا أدرى لماذا . وسمعتُ والدتى تشكره على عنائه باصطحابها إلى المنزل وسمعته يقول لى :

ــ « ألا تحيِّينى يا عزيزى تحيَّةَ المساء ؟ » فقلت :

ــ « عِمْ مساءً يا سيِّدى . » فقال وهو يضحك :

ــ «هاتِ يدَكَ وصافِحْنى ولنكُنْ صديقَيْن . »فمددتُ يدى وتصافحنا وانصرف . وتكررت زَوراتُ هذا الرجل لنا ، وما كنتُ أزدادُ إلا نفوراً منه دون أن أستطيعَ إدراكَ سبب ذلك النّفور . وفى أمسيةٍ من الأماسى ، كانت والدتى قد خرجت كعادتها تتناول العشاء عند أحد الجيران ، وكنتُ أنا و « بيجوتى » نقضى الوقت معاً فقالت لى :

ــ « أتريدُ يا عزيزى أن تصحبنى لنقضى أسبوعين فى ضيافةِ شقيقى ؟ » فقلت :

ــ « وهل شقيقُكِ رجلٌ طيب القلب لطيفُ المعْشَر ؟ » فقالت وقد رفعتْ يدها إلى السّماء مُسْتَشْهِدَةً بها :

ــ «إنه يفيض رقّةً وعذوبةَ نَفْس ...ثم لا تَنْسَ أن القرية التى يسكنها ، تقَعُ عند شاطئ البحر ، فهناك السُّفُن والمراكب وصيّادو السمك ، وهناك أيضاً " شام " ابن شقيقى ، وسوف يسرُّه أن تصطحبا وتلعبا معاً . » فأغرانى برنامجُ تلك الزّيارة فقلتُ لها :

— « إنى أقْبَلُ أن أقوم بتلك الرحلة عن طيبِ خاطر ، ولكن هل توافق أمّى عليها ؟ » فقالت :

— « أنا كفيلةٌ برضاها ، ولاسيَّما أنها هى أيضاً ستقضى أسبوعين فى ضيافة إحدى صديقاتها فى بلدة قريبة » .

ورضيتْ أمِّى وحُدِّد موعدُ السفر ، فرحلتُ أنا و« بيجوتى » فى الموعد المضروب ، مستقلَّين إحدى مركبات الأجرة ، فلم نكَدْ نصِلُ إلى القرية حتى رأينا « شام » ابن شقيقها واقفاً عند شاطئ البحر ينتظرنا ، وهو فتًى يكبرنى سنًّا غير أن نظراتِه وقَسماتِ وجهه ، تدُلُّ على سذاجةِ الأطفال ، فحملنى على ظهره ، وحمل بإحدى يديه حقيبتى كأنَّ الصّداقة موطَّدَةٌ أركانُها بيننا منذ زمنٍ قديم ، وتبعتنا « بيجوتى » حاملة حقيبتها وسَلّة الزاد ، فسمعته بعد قليلٍ يقول لى :

— « هو ذا مسكننا . » فأجَلْتُ طَرْفى فى أنحاء المكان الذى وصلنا إليه ، فلم أجد مسكناً من المساكن ، اللّهمّ إلا مركباً صغيراً غارقاً عند رمال الشاطئ ، ومجلَّلاً بألواحٍ من التَّنَك ، فقلت له :

— « أهذا الذى نراهُ أشبهَ بسفينة ؟ » فقال :

— « هو ذاك . »

ولو كان المسكنُ الذى سننزل فيه قصراً من قصور الأساطير ، لما سُرِرْتُ به سرورى بتلك السفينة الغارقةِ التى سآوى إليها ، فقد تمثّلْتُها

سفينةً عظيمة ، مخرتْ عُبابَ الماء أياماً وليالىَ ، ثم رماها القدر إلى الرمال لتستقرّ عليها ، وتكون مأواى مدة أسبوعين ، وسرّنى كذلك أن أشمَّ فى هذا المسكن رائحةَ السّمك ، ولقد علمتُ من « بيجوتى » أن شقيقها يصطاد السمك ويتاجر به ، فلا عجب أن كانت فى تلك السفينة أو فى ذلك المأوى كميات منه .

وكان فى استقبالنا عند ذلك المسكن ، امرأة مهذّبة ، تلبس رداءً أبيضَ ، وقد وقفت إلى جانبها صبيّة صغيرة جميلة ، كانت تتحلّى بعقدٍ من اللؤلؤ الأزرق . فجلسنا فى الحال إلى المائدة نتناول طعام الغداء ، ثم أقبل علينا رجلٌ طويلُ الشّعَر ، ساذجُ النّظَر ، فإذا هو السيد « بيجوتى » أى شقيق خادمتنا « بيجوتى » ، فحيانا وحيّيْناه ، ثم تناولنا بعد العصر الشاى واجتمعنا معاً فى المساء ، نَسْمُر ونتحدّث فقلت لربّ المنزل على سبيل الدّعابة :

— « يا سيد " بيجوتى " ! » فقال :

— « نعم يا عزيزى . » فقلت :

— « ألأنك تعيش فى ضَرْبٍ من سفينةِ نوح ، أطلقتَ على ابنك اسم " شام " ؟ » فرأى السيد « بيجوتى » أن سؤالى عميقُ المعنى ، فتجاوز عن عمقه وقال :

— « لستُ أنا الذى سمّيْته بهذا الاسم وإنما هو أبوه . » فقلت :

ـ « حَسِبْتُه ابنك يا سيّدى . » فقال :

ـ « هو ابن شقيقى " جو " . » فقلت بعد صمتٍ قليل :

ـ « أمات أبوه ؟ » فقال :

ـ « مات غَرَقاً ! »ودهشت من أن لا يكون « بيجوتى» هذا والد الفتى « شام » وقلت فى نفسى لعلّ صِلاتِ القُرْبَى بين الحاضرين هى غيرُ ما يبدو لى ، فشئت أن أستوضح الأمر ، فقلت للسيد « بيجوتى » وأنا أنظر إلى الصبية الجميلة صاحبة العقد الأزرق :

ـ « و " أميلى " الصغيرة ؟ هى لا شك ابنتك يا سيد "بيجوتى"؟ »

ـ « كلا يا عزيزى ! إنها ابنة أحد أنسبائى . » فسكتُّ قليلا ثم سألته :

« أمات أبوها أيضاً ؟ » فقال :

ـ « مات غَرَقاً ! »

شعرتُ بثقل ذلك الحديث ، ولكنّنى صَمَّمْت أن أذهب فيه إلى النهاية فقلت :

ـ « ألك أبناء يا سيد " بيجوتى " ؟ » فقال ضاحكاً :

ـ « كلاّ يا سيّدى فأنا رجلٌ أعزَب . » فصحت فيه مدهوشاً ، وقلت وأنا أشير إلى المرأة ذات الرداء الأبيض :

ـ « وهذه من تكون إذن ؟ » فقال :

ـ « إنها السيدة " جود " . »

وهنا أخذتْ « بيجوتي » أي صاحبتي الخادمة « بيجوتي » تغمزني بعينيها ، وتطلب إلى أن أكفَّ عن مثل هذه الأسئلة ، فأذعنتُ لغمزاتها ، وعندما أويت إلى فراشي أفهمتني « بيجوتي » أن هذه السيدة هي أرملة بحّار كان شريك السيّد « بيجوتي » في امتلاك أحد القوارب ، فمات ولم يترك لها مورداً تعيش منه ، فكفل معاشها السيد « بيجوتي » وإن لم يكن على يُسْرٍ ورَخاء ، فأكبرتُ في نفسي مأثُرَةَ الرجل ، وأثنيت على أريحيَّته .

وفي الصّباح ، ذهبت مع « أميلي » فاتنتي الصغيرة نجري معاً على رمال الشاطئ ، ونجمع منه الأصداف . وعلى هذه الوتيرة من المرح والسرور ، قضيتُ الأسبوعين ، ثم قفلتُ راجعاً مع « بيجوتي » الخادمة إلى مدينتنا ومنزلنا .





٢

شعرتُ ونحن عائدان إلى مدينتنا ، أن « بيجوتى » يخالجها شىءٌ كثيرٌ من الحرَج ، فلم أفهم سببه ، فلما وصلنا إلى المنزل انفتح لنا البابُ ضاحكاً باكياً ، وضاق صدرى لمّا وجدت خادمةً غريبة تستقبلنا ، وقد كنتُ أرجو أن أرى أمى تخفُّ إلى استقبالنا ، فصحتُ فى « بيجوتى » :

— « ما هذا يا "بيجوتى" ألمّا تعُدْ أمّى من رحلتها ؟ »

— « بلَى عادتْ يا سيّد "داڤيد" ... انتظرْ قليلاً فأخبِرَك . »

وسارتْ بى إلى المطبخ ، وهى تتظاهر بالمرَح والغِبْطة ، فقلت لها :

— « لماذا أدخلتنى إلى المطبخ ؟ أين أمّى ؟ لماذا لم تستقبلنا عند الباب ...

أأصابها مكروه ؟ أماتت هي أيضاً ؟ » فقالت « بيجوتي » متلعثمة :

ـ « يا سيد " داڤيد " . . . كان عليَّ . . . أجل كان عليَّ أن أقول لك . . . أن أقول لك قبل اليوم . . . ولكنَّني لم أجد الفرصة مُواتية . . . كان عليَّ أن أقول لك إن لك اليوم والداً . » فارتجفتْ مفاصلي، وامْتُقع لوني ، وخُيِّل إليَّ أنَّ ريحاً من قبر والدي قد لفحتْ وجهي وأن الأموات قد بُعِثُوا من قبورهم . فقالت لي « بيجوتي » :

ـ « والداً آخر . » فقلت مدهوشاً :

ـ « والداً آخر ؟ ! » فقالت « بيجوتي » وقد غصَّتْ بالكلام :

ـ « تعالَ معي لتراه . » فقلتُ لها :

ـ « لا أريدُ أن أراه . » فقالت متلطِّفة :

ـ « وأمّك ؟ ألا تريد أن تراها . »

وجذبتني من يدي ، ودخلنا البهْو الكبير ، فسارعت والدتي إليَّ تقبِّلني فشعرتُ أن في مسارعتها إليَّ شيئاً من الخجل يُعرْقل خطواتها ، ورأيت هناك السيّد « مردستون » وهو السيد الذي كان قد صحب أمّي ذاتَ ليلة إلى المنزل ، فخفَّ هو أيضاً إليَّ وقال :

ـ « كيف حالُك ياعزيزي . » فصافحته ثم خرجت من البهْو إلى غرفتي ، فإذا هي غير غرفتي القديمة ، ثم جُلتُ في أنحاء المنزل والحديقة فوجدتُ كل شيء قد تغيّر فيهما ، حتى مأوى الكلاب الخالي ففيه اليومَ

كلبٌ ضخم أسود، استقبلنى بنباحٍ شديد، وكاد يهجم علىّ ويمزّقنى .

ويعلمُ اللهُ كم بكيتُ عندما خلوتُ بنفسى فى فراشى ، وكم بللْتُ وسادتى بالدّمع السّخين . ولما استيقظتُ فى الصباح ، رأيت أمّى منحنيةً على سريرى ، وإلى جوارها « بيجوتى » لا تُبْدِى حَراكاً ، ثم سمعتُ أمى تقول لى وهى تُمسِّد شعر رأسى :

— « " داڤيد " يا ولدى الحبيب ما بالك ؟ »

وعجبتُ فى قرارة نفسى كيف تسألنى أمّى مثل هذا السؤال ، فاستدرت إلى جانبى الآخر لكيلا تلحظ اضطراب شفتىّ ، فتعلمَ من اضطرابهما ما يخالج قلبى من شُعور الألم . وبينما أنا على هذه الحال ، شعرتُ بيدٍ أخرى لا هى يدُ أمّى ولا يد « بيجوتى » ، وإنما هى يد السيد « مردستون » تجذب إليها ذراعى ، ويقول صاحبُها لوالدتى :

— « يا عزيزتى "كلارا" ما معنى هذا ؟ أنسيتِ نصيحتى ؟ عامليه فى شىء من الحزم والصرامة . »

وكأنّ والدتى لم تستطع أن تأخذ بنصيحته ، فخرجت هى و« بيجوتى » من الغرفة ، وبقيت وجهاً لوجه مع السيد « مردستون » فقال لى :

— « اسمع يا " داڤيد " ! أتعلمُ ماذا أفعل عندما أروِّض حصاناً أو كلباً ؟ » فقلت :

— « لا . لستُ أعلم . » فقال :

— « أشْبِعُه ضرْباً . . . أفهمت ؟ فانهض إذن واغسل وجهك وانزل

معي إلى البَهْو . » فامتثلتُ لأمره مُكْرَهاً لا أعِي ، ولما نزلنا إلى البهو قال لأمّي :

ــ « يا عزيزتي " كلارا " أعتقد أنه لن يضايقك بعد الآن ، ففي استطاعتنا إصلاح خلقه السّيء . »

ولو أنّ هذا السيّد أفهمني واقعة الحال ، واستعمل معي قليلاً من الرقّة واللطف لكان أسرني مدى الحياة ، ولكنه شاء أن يستخدم قوّته وسلطانه في تأديبي ، وأن يُكْرِهني على طاعته ولو عن سبيل المَلَق والرياء .

وفي مساء ذلك اليوم ، سمعنا صوتَ عجلاتِ مركبة تقف عند باب الحديقة ، وتنزل منها الآنسة « مردستون » شقيقة هذا السيد ، فرأيتها تشبهه في سواد شعرها وقسوة نظرها ، وبعد أن نزلت من المركبة نقل الحوذيّ إلى المنزل حقيبتين لها كُتِبَ اسمها فوقهما بأحرفٍ من نحاس ، فلما فرغت وفرغنا من التحيات ، التفتت إليّ وقالت تخاطب أمّي :

ــ « أهذا ابنك يا نسيبتي ؟ » فقالت أمّي :

ــ « نعم . » فقالت :

ــ « إني لا أحبّ الصبيان . »

فبلعتُ هذه التحية الكريمة من هذه الآنسة الزائرة ، ولكنها لم تكن زائرة بل جاءت تقيم معنا ، وبعد زمن وجيز استولت على جميع المفاتيح في الدار ، وأصبحت فيها الآمرة الناهية على رضًى من أمي وطَواعية .

ورأى القوم قبل أن يبعثونى إلى المدرسة ، أن يُعْنَوا بتعليمى فى البيت ، فكان السيد « مردستون » وشقيقته وأمى ، يحضرون الدروس التى يلقننى إياها المعلم فى جوٍّ رهيب يملأنى ذعراً ورعباً ، فأين منه ذلك الجوّ البديع الذى تلقيتُ فيه دروسى الأولى ، وكنت أقرأ فيه لخادمتنا «بيجوتى» قصّة التماسيح ؟ وكانت أمى كلما أغلق علىّ الجواب عن سؤالٍ من أسئلة المعلم ، وشاءت أن تساعدنى فى اقتناص الجواب ، هجم السيّد وشقيقته عليها هجوم الذئب الضارى ، وأوصياها باستخدام القَسْوة ، وإلا نشأتُ جاهلاً سيئ الخُلُق ، وكان يتبع ذلك بعض صَفَعات يكيلُ لى إياها السيّد « مردستون » أو شقيقته ، وأمى صامتةٌ صَمْتَ الأموات ، تعلو وجنتيها حمرةُ الغضب السَّاكت . وعلى مثل هذا الجحيم كنتُ أقضى ساعات الدرس .

وازداد السيّد «مردستون» وشقيقته صَرامة فمنعانى أن أصحب الأطفال وأن ألعب معهم ، زاعمين أنهما لا يريدان أن يرميا بى إلى جَوْقة من الأفاعى لئلا تفسد أخلاقى . وبقيتُ على هذا النظام مدة ستة أشهر تحوّل فيها مَرَحى وانطلاقى إلى العبوس والتضجُّر والكآبة .

ومن حسن حظّى أن كانت غرفة المرحوم والدى تجاور غرفتى ، فأصبحت أتسلّل إليها ، وأقضى فيها وقتاً غير قصير فى مطالعة الكتب الموجودة فيها ، وكان يستهوينى منها على الأخصّ كتب الرحلات ، فأتيت

عليها كلها ، وكنت أتخيَّلُ نفسى وأنا أقرأ بعض المغامرات فيها ، أنى قائدُ سفينة ، وأن على القائد إذا غرقت سفينته أن يكون آخر من يغرق أو آخر من ينجو اعتزازاً بكرامته وعزّة نفسه ، أمّا أنا فكنت قد فقدتُ تلك الكرامة والعزّة فى ظلال من يريد أن يسلبنى شخصيتى ، ويفرض علىّ الطاعة العمياء ، ويدخل فى روع أمى أنى ولدٌ شاذٌّ الأخلاق سيِّئ الطِّباع .

وجاء اليوم الذى قرّر فيه القوم أن يُرْسلونى إلى مدرسة من مدارس « لندن » ، فأوصلنى السيد « مردستون » وشقيقته إلى المركبة ، دون أن أودّع أمى وحرَمانى كذلك أن أحيي « بيجوتى » فسار بى الحوذى ينتهب جواده الأرض انتهاباً ، فما كادت المركبة تسير بى نحو نصف ميل ، حتى وقفتْ فجأة ، فتطلَّعْتُ حولى لأعرف سبب ذلك الوقوف المفاجئ ، فلشدّ ما دهشتُ عندما رأيت « بيجوتى » تخرج من بعض الأسوار ، وتصعد إلى المركبة ، وتُوسعنى تقبيلاً ، ثم تُخْرِج من جيبها الطويل كيساً مملوءاً بالحلوى فتدفعه إلىّ وتردفه بكيس صغير من النقود ، تضعه بين يدى ، ثم تعاود تقبيلى وتنزل من المركبة دون أن تَنْبِس بِبِنْت شَفَة .

وصلنا إلى « لندن » فقادنى الحوذى إلى فندق لا أذكر أيسمَّى «الثور الأزرق » أم « القنفذ الأزرق » وكلُّ ما أذكره عنه أنه اسم لحيوانٍ أزرق ، وكان فى الفندق رجل فى انتظارى فأقبل علىّ وقال :

— « أأنت التلميذ الجديد ؟ » فقلت له :

— « نعم يا سيدى . » فقال :

— « أنا أستاذ من أساتذة معهد " سالم " الذى تقصده . »

فتهيَّبْتُ هذا الرجل العالِم وكان اسمه «مل»، وسرتُ معه صامتاً، حتى بلغنا المعهد، فاستقبلنا عند الباب رجل بَدِينٌ كريهُ الوجه حليقُ الرأس ضخم العُنُق، كأنه عُنُقُ ثور، وكان ذا ساقٍ من خشب، فأدار نظره فىّ عُلُوّاً وسفلاً فلم تَطُلْ تلك النظرات لضآلةِ جسمى، ثم قادنى الرجل إلى قاعة الدرس، وكانت خاوية خالية فسألته عن التلاميذ فعلمت أنهم فى عطلة. واستمرَّ يقودنى حتى بلغ بى إلى مِنْضَدَة عليها لافتةٌ من الورق المقوّى كتب عليها هذه العبارة : «حذارِ إنه يَعَضُّ» فتولانى الجزَع، وصعدت فوق المنضدة ظنًّا منى أن فى داخلها كلباً من الكلاب . وكان الأستاذ «مل» قد لحق بنا، فسألنى ماذا أصنع فوق المِنْضَدَة فقلت :

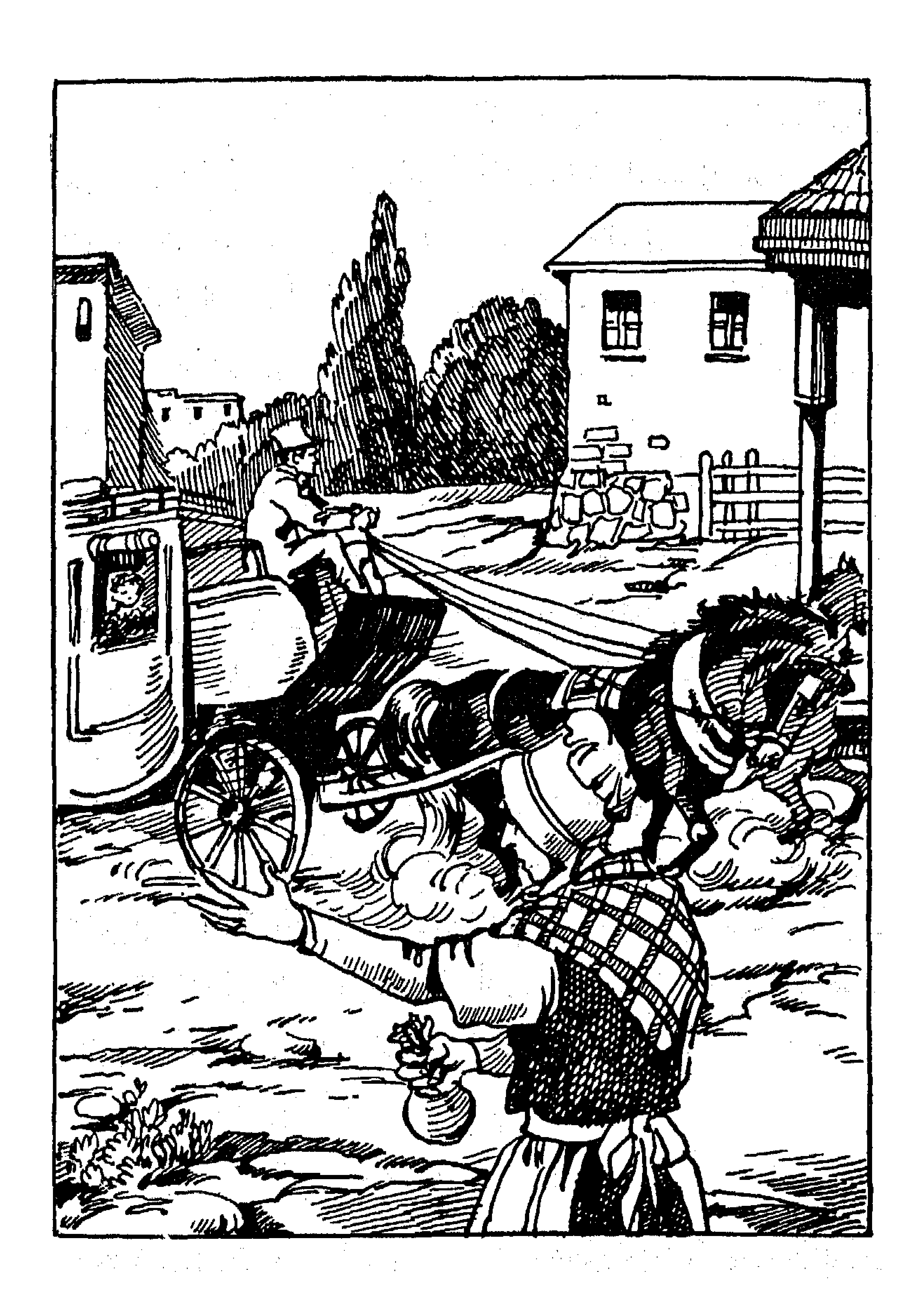
— « عفوك يا سيّدى ، إنى أفتّش عن الكلب . » فقال :

— « وأىّ كلبٍ تفتّش عنه ؟ » فقلت :

— « الكلب العَضُوض . »

وأشرت إلى العبارة المكتوبة على اللاّفتة الموضوعة فوق المنضدة ، فقال لى بلهجةٍ خطيرة :

— « لا يا " كوبرفيلد " إنه ليس كلباً ، إنما هو غلامٌ صغير . لقد أمرونى أن أربط هذه اللافتة على ظهرك . وإنى مضطرٌّ إلى تنفيذ الأمر على مَضَضٍ منّى . »



فأنزلني من المنضدة ، وربط اللافتة إلى ظهرى ، ثم قادنى الرجل ذو الساق الخشبية إلى ناظر المدرسة وكان رجلاً أقرب إلى الوحوش منه إلى بنى الإنسان ، فحدجنى بنظرة قاسية ، وقال لى وهو يفرك أذنى :

ــ « لى الشرف أن أعرف زوجَ والدتك السيد " مردستون " إنه رجلٌ حازمٌ عزيزُ النفس ، وكلانا يعرف الآخر تمام المعرفة ، أفتعرفنى أنت؟ »

فقلت وأنا أتألم :

ــ « لمَّا أشرُفْ يا سيّدى بمعرفتك . » فقال وقد ترك أذنى :

ــ «سوف تعرفنى ... سوف تعرف أنى رجل من التَّتَر ... ولن أتسامح أبداً فى أمرٍ آمرُ به أو أنهى عنه .» فقلت وقد هبَّتْ بى روحُ الشجاعة :

ــ « نعم يا سيّدى ، ولكن ناشدتك الله إلاّ أمرتَ برفع هذه اللافتة عن ظهرى . . . إنى نادمٌ عمَّا بدر منى نحو زوج والدتى . . . فأتوسَّل إليك أن تأمر برفع هذه اللافتة قبل أن يعود التلاميذ . . . »

فزمجر زمجرة الوحوش . وهجم علىَّ يريد أن يفترسنى أو يريد تخويفى ، فمضى بى ذو الساق الخشبية إلى قاعة النوم ، فانطرحت على سريرى باكياً .

وقضيتُ فى تلك المدرسة عدّة أشهر ، ولم أستفد كبير استفادة ، فأنَّى للجوِّ الرَّهيب المشبع بالقسوة والوحشية ، أن يفتح الأذهان لتحصيل العلم وصَقْل المدارك .

ولمّا دنا موعد العطلة الكبرى ، كان جُلُّ ما أخشاه أن يحال بينى وبين

الرجوع إلى المنزل ومشاهدة أمّي الحبيبة ، ولكم أن تقدروا مبلغ فرحي وسروري ، عندما نُبّئْتُ بالاستعداد للسفر إلى مسقط رأسي . يا للفرحة الكبرى ! أأعود إلى منزلي وإن كنت أعلم أنه لم يعد منزلي ، ولكني حسبي أن أكحل العين برؤية أمي ، ورؤية الأشياء التي ملأت فَراغ طفولتي في ذلك المنزل .

وعندما عدتُ إلى مسقط رأسي ، ووصلت إلى باب الحديقة ، كنت أتمنّى على الله أن لا ألقى أوّلَ ما ألقى وجه السيد «مردستون» أو وجه شقيقته.

اجتزتُ الحديقة ، ودخلت المنزل فشنّفَ أذني سماعُ صوت أمي وهي تغنّي ، فرجعت بي الذكرى إلى تلك الأيام الجميلة التي كنت أنْعَم فيها بسماع غناء أمي ، وأقف أنا و « بيجوتي » منها مسرورَيْن معجبين .

ساقني الصوت إلى الغرفة ، فتخطّيْت عتبتها ، ورأيت أمي وحدها جالسة قرب الموقد ، وهي تُرْضِع طفلاً وتُناغيه حتى ينام ، فناديتُها بصوت خافت ، وسُرْعان ما خفّت إليّ وخففتُ إليها وتبادلنا العِناق والقُبُلات ثم قالت لي وهي تُدني يد الطفل من شفتيّ :

— « هذا أخوك يا " داڤيد " . . . قبّلْ أخاك يا " داڤيد " ... »

وفي غمرة من ذهولي وجمودي ، أقبلتْ علينا « بيجوتي » وهجمتْ عليّ كالمجنونة تُوسعني تقبيلاً . . . ثم علمت أن السيد « مردستون » وشقيقته قد ذهبا يزوران بعض الجيران ، وأنهما لن يعودا إلا في ساعة

متأخرة من الليل ، فسررت غاية السرور ، وما كنت لأحلم بمثل تلك السعادة فألقى أمى و « بيجوتى » وحدهما بعد ذلك الغياب الطويل . تناولنا العشاء نحن الثلاثة معاً ، وأرادت « بيجوتى » أن تقوم بمهمّة الخادمة فى ذلك العشاء ، غير أن والدتى طلبت إليها أن تجلس معنا وتشاطرنا الطعام .

وبعد العشاء عُنيت « بيجوتى » بوضع الطفل فى مَهْده ، ثم اجتمعنا معاً نحن الثلاثة قرب الموقد ، وأخذنا نتناجى ونتجاذبُ أطراف الحديث ، و « بيجوتى » منهمكةٌ فى تطريزها ، ثم سألتنى أن أقرأ لها فصلاً من قصة التماسيح ففعلت .

وفى نحو الساعة العاشرة خُيِّل إلىّ أن ريحاً باردةً قد عصفتْ بذلك الجوّ الهادئ الدّافئ فى المحبة والوداد ، ذلك أننا شعرنا بباب الحديقة يُفْتَح ، فعلمنا أن السيّد « مردستون » وشقيقته قد عادا من سهرتهما ، فأوعزتْ إلىّ أمى أن أسارع إلى غرفتى لأن زوجها وشقيقته ليس من مذهبهما السّماح للأطفال بالسهر حتى تلك الساعة من الليل ، فنفّذتُ أمرها فرحاً مغتبطاً .

ونزلتُ فى الصباح إلى غرفة الطعام ، وكان القوم مجتمعين فيها ، فحيّيْت أمى ثم أقبلت على السيد « مردستون » وشقيقته وحيّيْتهما تحيّة طيبة ، فاستقبلتنى الآنسة « مردستون » بتنهّدةٍ صادرة من أعماق صدرها وقالت تسألنى :

— « كم من الوقت تطول العطلة ؟ » فقلت :

ـــ « شهراً يا آنسة ؟ » فقالت :

ـــ « منذ أى يوم ؟ » فقلت :

ـــ « منذ أمس . » فقالت :

ـــ « حسن . . . لقد مضى منها يوم . . . »

وكانت فى صباح كل يوم ، تنزع من الروزنامة ورقةً ، وهى تَعُدُّ الأيام الباقية من العطلة ، وكان مزاجها يتمشّى مع مرور الأيام ، فبدأت فى الأيام الأولى عابسةً ، ثم أخذت أساريرها تتألق قليلاً قليلاً بعد الأيام العشرة ، وازدادت تألقاً فى الأيام القليلة الباقية من الشهر ، حتى انتهت العطلة وحان موعد الرجوع إلى المدرسة .

ومهما كان جوُّ المدرسة بغيضاً رهيباً ، فقد أصبحتُ أوثره على جوِّ المنزل فى صحبة السيد « مردستون » وشقيقته ، وحسبى هذا الشهر الذى قضيته وشعرت فيه أن هوّةً عميقة تفصلنى عن ساكنيه ، ولقد يطول بى الشرح لو ذكرتُ كلَّ ما لقيته من ترحيب زوج الأمّ وشقيقته ، فما كانا يدعان وسيلةً من الوسائل إلا اتخذاها فى سبيل تنغيص الحياة علىّ ، وإنى لأذكر أنى دخلت مرّةً غرفة والدتى ورأيتها تلاعب طفلها الصغير ، ولم يكن عمره قد تجاوز بضعة أسابيع ، فأحببت أن أشاطرها تلك الملاعبة ، فحملت الطفل وشرعتُ أناغيه ، فسمعتُ صوتاً دَوَّى كالعاصفة العاتية يقول لأمى :

ـ « ويحك يا " كلارا " كيف تسمحين لهذا الغلام الشّرس بحمل هذا الطفل الوديع ؟ ! »

وكان صوت الآنسة « مردستون » فانتزعت الطفل منى انتزاعاً ، ورَجَعَتْه إلى أمّى . وإنى لأذكر أيضاً ذلك اليوم الذى دخل علىّ فيه السّيد « مردستون » وعيناه تقدحان بشَرَر السخط والغضب ، وهو يقول لى مُتوعّداً مهدّداً :

ـ « اعلم أيُّها الغلامُ الطائش ، أنه ليس من الكرامة أن تقضى أوقات فراغك مع الخادمة " بيجوتى " أفهمت ؟ وحذارِ أن تخالف أمرى ! »

فطأطأت رأسى مُذْعِناً وحزّ فى صدرى تنفيذ ذلك الأمر ، فإن « بيجوتى » الكريمة الوفيّة كانت لفؤادى البرد والسلام فى ذلك الجوّ الخانق .





٣

مَضَى على رجوعى إلى المدرسة نحوُ شهرين ، فدُعيتُ ذاتَ يومٍ إلى غرفة الزائرين ، فهبطتُ إليها مسرعاً على أمَلٍ أن ألقى « بيجوتى » قد جاءتنى ببعض الحلوى والهدايا ، ولكنَّنى دهشتُ كُلَّ الدَّهَش عندما رأيت فى تلك الغرفةِ الفسيحة ، ناظرَ المدرسة جالساً إلى مائدةِ الطعام ، يلتهمُ ما حَفَلَتْ به المائدة من فطائر وجبنٍ وحلوى وإلى جانبه زوجته وقد بدَتْ مفكّرةً مهمومة ، فخفَّتْ إلىَّ وأجلستنى على بعض المقاعد وجلست بإزائى وهى تقول :

— « إنك بعدُ صغيرٌ يا "داڤيد" فلا تستطيع أن تدرك تقلُّب الأيام

وحوادثَ الدهر ، ولا أن تعرف كيف تطغى المنيه على الاحياء فتقصيهم عن أحبائهم ومعارفهم ، ولكنه أمرٌ يجب أن ندركه ونعرفه . »

فحدَّقْتُ فيها مذهولاً من هذا الحديث ، فاستأنفتْ هي الكلام وقالت :

ـ « عندما عُدْتَ من العطلة ، أكان جميع ذويك فى سلامة وعافية ؟ . . . أكانت والدتك تشكو من عِلَّة من العِلَل ؟ »

فاضطربتُ من رأسى إلى أخْمَص قدمى عند سَماعى هذا السؤال ، أمَّا هى فعادت تقول :

ـ « يَعِزُّ علىَّ يا "داڤيد" أن أخبرك أن والدتك مريضة . . . مريضة جدًّا . »

فغشيتْ عينى سحابة من الكآبة حجبَتْ عنى وجه محدثتى ، ثم شعرتُ بالدّمع ينهمر من مآقىَّ ، وسمعتها تستأنف حديثها وتقول :

ـ « إنها فى خطرٍ جسيم . . . »

فأدركتُ الحقيقةَ الرهيبة ، وعلمتُ أن أمى قد ماتت ، وأنى أصبحتُ يتيمَ الأبوين فى هذا العالم ، ثم علمتُ أيضاً أنّ أخى الصغير قد مات أيضاً بعد موت أمى بلحظاتٍ قلائل .

جرى هذا الحديثُ القاتلُ ، وناظرُ المدرسة لم ينفكّ يزدرد طعامه ، ويطالع الصحف التى أمامه ، فعطفتْ علىَّ زوجته كلَّ العطف ، وتركتنى

معها طول النهار ، وأنا أبكي مرّةً وأهيمُ في بوادي التفكير مرّةً أخرى ، وهكذا دواليْك . وفي اليوم التالي ، تركتُ المدرسة وعدتُ إلى المنزل ، فاستقبلتني « بيجوتي » على خطواتٍ منه ، وما إن رأتني حتى انفجر الدّمعُ من محاجرها ، ثم كتمتْ حزنها وعَبراتها ، وتناولت يدي وسارت بي إلى المنزل وهي تكاد تتكلم همساً كأنها تخشى أن توقظ الأموات .

دخلتُ البهْو ، فرأيت السيد « مردستون » جالساً إزاء الموقد ، يكفكفُ عبراتِه على فقيدته الغالية المسْجاة في غرفتها ، ورأيت شقيقته جالسةً إلى منْضدة مزدحمة بالرسائل والأوراق ، تكتب وهي مستغرقة في الكتابة ، فمدّت إليّ إصبع يدها محييةً ثم قالت :

— «ستتولّى "بيجوتي" عمّا قليل أخْذَ قياساتِك لملابس الحِداد ... هل أتيتَ بجميع أمتعتك وقمصانك من المدرسة ؟ » فقلت :

— « نعم يا سيدتي . »

وكان هذا الحديثُ كلّ العزاء الذي التمستَه لي هذه الآنسة القاسيةُ القلب الغليظةُ الكبد .

ولما تم تشييعُ الجنازة ، أقبلتْ عليّ « بيجوتي » وأنا في غرفتي ، تحدّثني عن أمي الحبيبة وعن أخي الصغير فقالت لي :

— « في الليلة الأخيرة قَبّلَتْني أمّك العزيزة وقالت لي : "يا بيجوتي ! إذا مات طفلي أيضاً ، فأرجو أن تضعيه بين ذراعيّ ، وأن يدفنونا معاً

(وهذا ما فعلتُ ، لأن الطفل المسكين مات بعدها بلحظات) لما ارجو أن يصحبنا داقيد إلى مقرّنا الأخير ، وقولى له إن أمّه فى ساعتها الأخيرة قد باركته ودعتْ له بالخير " . »

وسكتتْ « بيجوتى » وأخذت تُمِرُّ يدها بِرِفْقٍ على رأسى ووجهى ، ثم عادت إلى الكلام وقالت :

— « وكان الليل فى هزيعه الأخير ، فطلبتْ منى الفقيدةُ العزيزة أن أرْوِى ظمأها بجُرْعة ماء ، فلما شربتْ غمرتنى بنظرةٍ حلْوة من عينيها الجميلتين . . . وعند الفجر قالت لى : " عزيزتى بيجوتى قرِّبينى هناك (وكانت أشبهَ بخيالٍ نحيف) وضَعى ذراعك تحت عُنُقى ، واقلبينى إلى ناحيتك ... إن وجهك يبتعد منى وأوَدّ أن أراه . " فقمتُ بكل ماطلبت ، فأسندتْ عندئذ رأسها إلى ذراع بيجوتى خادمتها القديمة ، ولفظت أنفاسها وأغفَتْ كما يُغْفِى الطفلُ الرَّضيع . »

فكنتُ أسمع هذا الحديث وقلبى يتفطَّرُ حزناً وأسًى ، ويشكر لمحدّثتى عِنايتها وسَهرها على أمى العزيزة . ولم يمرّ يومٌ واحدٌ على تَوارِى أمى وراءَ تُراب القبور ، حتى أنذرت الآنسة « مردستون » خادمتنا الوفية «بيجوتى » بوجوب انقطاعها عن العمل فى المنزل ، وأمهلتْها شهراً . أمّا أنا فما من كلمةٍ واحدة تشير إلى شأنى ومستقبلى ، ولقد تشجعت ذاتَ مساء وسألتُ الآنسة « مردستون » متى أعود إلى المدرسة فأجابت أنى لن أعود إليها

وأقفلتْ باب الحديث ، فما استطعتُ ولا استطاعت « بيجوتى » أن تعلم شيئاً عما يُضْمره لى هذان الشّقيقان .

وجلسنا ذاتَ مساء نتحدّث معاً فى المطبخ ، ويدور حديثنا على مصير كلٍّ منّا فقالت لى :

— « لقد بحثتُ طويلاً يا عزيزى عن عملٍ لى فى هذه المدينة ، فما وقعتُ على شىءٍ يلائمنى . » فقلت لها :

— « وماذا تنوينَ أن تفعلى ؟ » فقالت :

— « سأضطرُّ فى الغالب إلى الرحيل عن المدينة ، والسُّكْنى مع شقيقى على شاطئ البحر ، وأنت تعلم أن المكان ليس بعيداً ، فسوف أزورك مرةً كل أسبوع ما دمتَ أنت هنا . »

فخفّفَ هذا الوعد عن صدرى همًّا كبيراً ، واستأنفت « بيجوتى » حديثها قائلة :

— « سأقضى عند شقيقى أسبوعين حتى أستعيدَ قواى ثم . . . ولكن اسمع ... لقد دار بخلدى خاطرٌ من الخواطر . . . من المحقق أن السيّد " مردستون " وشقيقته ليسا فى حاجة إليك ، فلعلهما يسمحان لك بالرحيل معى . »

ولاحت فى هذه اللحظة الآنسة « مردستون » فحدّثتها « بيجوتى » عن هذا الخاطر فى شجاعةٍ منقطعة النظير فقالت :

— « سواءٌ رَحلَ معك أم بقى معنا ، فسوف يضيع وقته عبثاً ، فهو غلامٌ كَسولٌ بليد لا يُرْجى منه أى نفع كان ، ولسوف أحمل أخى على قبول اقتراحك ولو إلى أمدٍ قصير ، لأوفّر عليه عناء الاهتمام فى هذه الفترة بهذا الأبله الخامل . »

وعند انقضاء المهلة التى مَنَحتها « بيجوتى » تركنا المنزل معاً ، ورحلنا إلى قرية شقيقها ، ونزلنا على القوم الذين عرفناهم فى تلك السفينة الغارقة فى الرمال .

وفى أثناء إقامتى بين ظَهْرانَىْ هؤلاء الكرماء ، زُفّت « بيجوتى » إلى السيّد « بركيس » ، و « بركيس » هذا هو الحوذى الذى ركبنا مركبته فى مجيئنا إلى القرية ، وركبتها أنا غير مرّة فى ذهابى إلى المدرسة وإيابى منها ، وكان الرجل مغرماً بصاحبتنا « بيجوتى » ، وكان قد طلب يدها مراراً ، فقبلت به زوجاً فى هذه المرّة وزُفّتْ إليه ، ولعلها رضيت بالزواج ليكون لها بيتٌ تسكنه وتستضيفنى فيه عند الحاجة .

وغداة يوم الزواج ، تركتُ السفينة الغارقة ، وذهبت أقيم مع العروسين ، فخصّصت لى « بيجوتى » غرفة صغيرة ، أويتُ إليها ووضعتُ الكتاب الذى يَرْوِى قصة التماسيح على رفٍّ إلى جانب سريرى ، فقالت لى « بيجوتى » يوماً :

— « ياعزيزى! هذه الغرفة غرفتُك مادمتُ أنا على قَيْدِ الحياة ، وسوف

أعنّى بتنظيفها وترتيبها كلّ يوم ، كما كنتُ أفعلُ فى منزلك ، واعلم أن لك فى هذا المأوى غرفة خاصة بك سواء أقمت بها أم كنتَ فى أقاصى الصين . »

فشكرتُها على رقيقِ عاطفتها، وأكبَرْتُ منها هذا الوفاء، وكم وددتُ لو بقيتُ فى هذه الغرفة الحقيرة ناعماً بمحبّة « بيجوتى » وعنايتها ، ولكن المدة التى سمح لى فيها السيد « مردستون » وشقيقته بالتغيُّب عن المنزل كانت قد انتهت ، فاستعدّتْ « بيجوتى » لتصحبنى إلى المنزل فى مركبة زوجها .

وصلنا إلى باب الحديقة فودّعتنى « بيجوتى » وودّعْتها وداعاً أليماً ، وحيّيْتُ زوجها ورحلت إلى ذلك المنزل الذى لم يَعُدْ لى فيه أحدٌ يعطفُ علىّ ويحبُّنى .

عشتُ فيه وأنا فى شبه عزلة ، وكان الشقيقان يُمْعِنان فى الجفاء والقَسْوة ، ويُشْعِرانى بأنى عالةٌ عليهما ، وعلِمتُ عرَضاً أن السيّد « مردستون » قد شَحَّ المالُ فى يديه ، فلا عجب إذا اتّخذ ضيقَ رِزْقه سبباً فى التبرُّم منى ومن حياتى فى كَنَفِه .

ولقد استدعانى يوماً إليه وقال لى :

— « تعلَمُ أيها الكسول ، أنى لست غنيًّا ، فإن كنتَ تجهل هذا الأمر فها أناذا أقِفُك عليه ، ولا إخالُنى قادراً أن أعيدك إلى المدرسة ، فلا طاقةَ

لى بنفقاتها ، وهبْنى قدرتُ عليها فما أراك أهلاً للدراسة وتحصيل العلوم ...»

فنظرتُ إليه مدهوشاً من هذا الحكم القاسى علىّ ، وأخذت أتوقّعُ أوخم العواقب من هذا الحديث ، فاستأنف كلامه وقال :

– « فلا بُدّ لك إذن من عمل تعمله فتكسب منه بعض ما يقومُ بأوَدك ... ولعلك سمعتَ ببيتٍ تجارى لبيع أصناف البقول والحبوب أملكه فى " لندن " أنا والسيد " كينيون " الحاضر معنا هنا ، وفى ذلك البيت التجارى كثيرٌ من الصِّبْية العاملين فيه ، فستنضمّ إليه وتتكفل بنفقاتك».

ورحلتُ فى صباح اليوم التالى مع السيد « كينيون » إلى « لندن » ، وانخرطت فى سلك العاملين فى تلك التجارة ، وعُهِدَ إلىّ فى إلصاق البطاقات على زجاجات الشراب والصناديق التى تحتويها ، وكان يشاركنى فى ذلك العمل أربعةُ غلمان يدلُّ مظهرهم على فقرٍ مُدْقع وطباعٍ لئيمة .

وفى مساء ذلك اليوم ، دعانى السيد « كينيون » وقدّمنى إلى رجلٍ من أصدقائه يُدْعَى « مكوبر » وأخبرنى أنه استأجر لى غرفةً فى منزل هذا السيد فرحّب الرجل بى وتطوّع أن يصحبنى إلى منزله لئلا أضلّ طريقى إليه .

وأفهمنى السيد « كينيون » أنه جعل راتبى ستة شلنات فى الأسبوع ، ونقدنى راتب أسبوع مقدّماً لأستعين به على قضاء ما أنا فى حاجة إليه ، فدفعت من ذلك المبلغ ستة بنسات لنقل حقيبتى ، وستة بنسات أخرى

ثمناً لعشائى ، ثم عدت سريعاً إلى حيث كان ينتظرنى السيد « مكوبر » فصحبنى إلى منزله .

واستقبلتنا فيه زوجته فألفيتُها سيّدةً شاحبةَ اللون، هزيلةَ الجسم ، قد بدأت الشيخوخة تَخطُّها بخيوطها البيض ، ورأيت البيت يعجّ بأطفال الزوجين ، فقادتنى السيدة إلى غرفتى ، ويالها من غرفة صغيرة حقيرة تكاد تخلو لا من الرياش بل من ضرورىّ الأثاث .

وعلمتُ بعد ذلك أن السيد « مكوبر » هذا كان ضابطاً متقاعداً من ضُباط البحرية ، وأنه يعمل الآن سمساراً لبعض البيوت التجارية ، غير أن رزقه من عمله كان ضئيلاً جداً ، فكَثُر دائنوه ، وضايقوه بزياراتهم ، ولكنه كان ينتهى هو وزوجته من مضايقاتهم إلى استئناف مرحهما وسرورهما والابتسام للحياة .

وسرّنى أن أعيش فى صُحْبة هذه الأسرة الفقيرة الحال ، الغنية بالابتهاج والأطفال ، وكنت أعودُ إليها فى مساء كلّ يوم ، وكأننى على موعد مع راحة البال . ولا بُدّ لى أن أشير هنا إلى أن السيّد « كينيون » صاحب المحل الذى أعمل فيه ، كان يَقْدُر لى نشاطى ومواظبتى على العمل ، فيعاملنى معاملة حسنة ، ويرى أنى من طينة غير طينة الزملاء الذين يعملون معى . ولقد كنت على علاقة طيّبة مع هؤلاء الزملاء ، غير أننى كنت أحتفظ لنفسى بكرامتها ، فلا أمازحهم ولا أرفع حجاب الجدّ بينى وبينهم ،

حتى إنهم سمّوْني « السيّد الصغير » .

وما كان هذا اللقب ، ليمحو من نفسي السّأم والشّجون من هذه الحياة التي أحياها ، ومن العمل الذي أزاوله ، مع ما كنتُ ألقاه من أسرة «مكوبر » من حفاوة ورعاية ، ولقد كتمتُ تلك الشجون في نفسي ، فلم أبُحْ بها « لبيجوتي » في الرسائل الكثيرة التي بعثتُ بها إليها وذلك أنفةً مني وكبرياء ، وخوفاً من أن أثير آلامها .

وتراكمت الدّيون على السّيد « مكوبر » حتى شكاه الدائنون إلى القضاء ، فحكم عليه بالحبس ثم استأنف الحكم فخفّفت عنه عقوبة السجن ، ونزلت إلى أسابيع قليلة ، استناداً إلى أنه مَدِين مُعْسِر ولكنه حَسَن النّية . وخرج السيّد « مكوبر » من السجن وقد اسودّت الدنيا في عينيه ، مع تلك الطاقة الكبرى من التفاؤل الذي كان يملأ جوانحه . واضطرّت أسرته في أثناء تغيبه في السجن إلى أن تبيع القليل الباقي لها من المتاع والأثاث ، لتُبْقي على رَمَقها ولا تموت من الجوع .

وقرّرت الأسرة بعد ذلك أن ترحل إلى مدينة « بليموث » حيث تقطن أسرة زوجة « مكوبر » فلعلّ الحظ الذي نَفَر منها في « لندن » يواتيها في تلك المدينة .

وضاقتْ بي الدنيا ، وفكرتُ طويلاً في أمري ووددت لو استطعتُ أنا أيضاً الفرار من المدينة ومن ذلك العمل الشائن الشاقّ الذي أزاوله ،

ولكن إلى أين المفرّ ؟ إلى أين ينطلق يتيمٌ صغير لا نصيرَ له ولا أهل . فخطر ببالى أن أهجر العاصمة إلى الريف ، وألتجئ إلى العمة « بتسى » وهكذا كانت تسمّيها المرحومة أمى ، ولكننى كنت أجهل عنوانها ، فسألتُ « بيجوتى » عنه ، وطلبت منها فى الرسالة نفسها أن تقرضنى نصف جنيه ، ووعدتها أن أفيَها ذلك المبلغ فى موعد قريب إن شاء الله . وجاءنى جواب « بيجوتى » يفيضُ كالعادة بالشّعور الرقيق والمودّة الفائقة ، ويدلّنى على عنوان العمة « تروتوود » وقد شفعت جوابها بالمبلغ الذى استقرضتُه .

على أنى لم أستلف هذا المبلغ إلاّ ليعيننى على نفقات السفر ، فراتبى الأسبوعى كان لا يكاد يكفينى .

حزمتُ حقيبتى وأودعْتُها كل ملابسى ، ونزلتُ بها إلى الشارع ، فلقيت مُكارياً يسوق حماراً ، فاتّفقتُ معه على أن يوصل حقيبتى إلى مكتب مركبات السفر لقاءَ جُعْل معلوم ، فشدّها إلى بَرْذَعة الحمار ، وركب هو وراءها وطار بحماره لا يلوى على شىء ، وعبَثاً حاولتُ أن أتبعه ، فالمسافة بينى وبينه كانت تطول ثم تطول حتى غاب عن بصرى فعلمت أنه لصٌّ أفّاك قد سلبنى الحقيبة وأنفى راغم .

ركبتُ إحدى المركبات العامة ووجهتى القرية التى تسكنها العمة « تروتوود » حتى بلغتها بعد يومين ، واضطُررت فى ليلتين متواليتين أن

أقضى الليل كبقيّة المسافرين فى أحد الفنادق المتناثرة على الطريق ، وأن أتناول فيها شيئاً من الطعام حتى كادت نقودى تَنْفَد .

وبلغنا فى صباح اليوم الثالث القرية ، فنزلت أطوف فيها باحثاً مفتّشاً عن مسكن عمّتنا الجليلة .

واتّفق لى بعد مسيرةِ ساعة ، أن صادفتُ حوذيّاً ينظّف مركبته ، فاقتربت منه وسألته هل يعرف منزل الآنسة « تروتوود » فحدّق قليلاً فى صفحة السماء ثم انثنَى إلىّ وقال :

— « " تروتوود " " تروتوود " ... أهى سيدة عجوز ؟ » فقلت :

— « نعم . . . فى مطلع الشيخوخة . » فقال :

— « ومتعجرفة جافية الطّباع ؟ » فقلت وقد أيقنتُ من دقّة الوصف :

— « نعم . . . ربما كانت جافيةَ الطبع بعضَ الجَفاء . » فقال :

— « اسْلُكْ هذا الشارع ثم انعطفْ منه يميناً ثم شمالاً حتى يواجهك البحر ، فاسأل هناك عن منزل السيدة " تروتوود " يدلّوك عليه . »

فشكرته ومضيت أجتاز الشوارع التى دلّنى عليها ، حتى طالعنى البحر . وكنت قريباً من دكان بقّال فدخلته . وسألت صاحبه عن منزل السيدة « تروتوود » فسمعت صوتاً عالياً يُدَوِّى قائلاً :

— « من هذا الذى يسأل عن منزل الآنسة " تروتوود " ؟ »

فتطلّعت إلى جهة الصوت فألفيتُ صاحبته خادمةً جاءت تبتاع



شيئاً من الأرز من دكان البقّال فقلت لها :

ــ « وهل تعرفينه ؟ » فقالت :

ــ « وكيف لا أعرف منزل مخدومتي . . . ولكن إن كنت جئت تستَنْدي كفّها ، وتطلب منها أن تحسن إليك ، فعَدِّ عن هذا وعُدْ من حيثُ أتَيْتَ . »

ــ فكرت قليلاً في كلام هذه الخادمة ، فرأيت أنها لم تخطئْ فيما جئتُ من أجله ، ولكن كتمت عنها غايتي وصحبتها إلى المنزل فأوصلتني إلى الباب ثم تركتني عنده ، وذهبت إلى باب آخر تدخل منه إلى المنزل وهي تقول لي :

ــ « هذا كلُّ ما أستطيع أن أفعله من أجلك . . . وأنت وشأنَك بعد هذا ! »





٤

دخلتُ المنزل فما اعترض سبيلى أحد ، ووصلت إلى البهو الكبير فكان خالياً ، فاقتربت من النافذة وتطلّعْتُ منها إلى الطبقة العليا من المنزل ، فرأيت فى الشُّرْفة رجلاً طَلْقَ الوجه ، رمادىّ الشَّعَر ، فابتسم لى وأخذ يغمزنى بعينيه غَمزاتٍ لم أفهم مغزاها ، أتراه يرحِّب بى أم ينذرنى بالخروج ، فاختتم غمزاته بأن انصرف ضاحكاً . فعدتُ أدراجى من البَهْو ، وخرجت من المنزل بعد أن استقرَّ فى ذهنى أن العمَّة التى جئتُ إليها غير موجودة فيه ، ولكن ما كِدْتُ أجتاز الباب ، حتى رأيته انفتح ثانية ، وخرجتْ منه سيّدة قد عصبتْ رأسها بمنديل ، ولبستْ فى يديها قُفّازاً ضخماً

مما يلبسه البستانيون ، وارتدت برداءٍ طويل ، وأمسكت بيمينها سكّيناً كبيرة ، فأدركتُ على الفور أنها العمة «تروتوود» فمِشْيَتُها المتعجرفة الحازمة ، هي المِشْية التى طالما حدّثتنى عنها أمى يوم رأتها فى منزلنا ، فلما رأتنى أشارت إشارة غريبة والسكين فى يدها وقالت لى :

— « اذهبْ من هنا فما من صِبْيةٍ يدخلون هذا المنزل ! »

وتركتنى وانصرفت إلى زاويةٍ من حديقتها ، وهمّتْ باقتلاع بعض النبات ، فدبّت شجاعة اليأس فى قلبى فتبعتها ولمستُ بيدٍ مرتجفة طَرَف ثوبها وقلت :

— « سيّدتى عَفْوَكِ . . . »

فاضطربتْ ونظرتْ إلىّ نظرةً فاحصة ، فأردفتُ أنا قائلاً :

— « عمتى العزيزة . . . عفوك . . . » فقالت مدهوشة :

— « ماذا تقول ؟ » فقلت :

— « عمّتى العزيزة . . . » فاستمرّت تفحصنى فتابعتُ أنا كلامى قائلاً :

— « أنا "داڤيد كوبرفيلد" الذى حضرت تزورين أمّه يوم مولده ... فمنذ موتها وأنا شقىٌّ تاعس . . . لقد أغفلوا شأنى ، وضَنّوا علىّ بالتعلّم ، وأكرهونى على عمل لم أخلق له فهربتُ وجئت ألقاك . . . بعد إذ سُرِقَ متاعى . . . »

وهنا خانتني القوى ، فانسكبت الدموع من عيني . وكانت عمتي حتى هذه اللحظة أسيرة الدّهَش والاستغراب ، فلما رأتني أبكي ، أمسكت بي وأدخلتني إلى البهو ، وأجلستني في أحد المقاعد ، ثم جاءتني ببعض الشراب المنعش وهي تقول بصوت يدوّي كالرَّعْد :

— « آه يا إلهي ! »

وبعد لحظة قصيرة ، استدعت الخادمة فأقبلتْ هذه مُهَرْوِلَةً فقالت لها بصوتها الرّنان :

— « اصعدي إلى الطبقة العليا ، وقولي للسيد " ديك " إني أريد أن أحدّثه . »

وأخذت العمّة تَذْرَع الغرفة جيئةً وذهوباً ، ويداها مشتبكتان وراء ظهرها ، حتى دخل علينا رجل يضحك ، فإذا هو الرجل الذي لمحته في الشُّرْفة ، وأمطرني بغمزاته ، فقالت له عمتي :

— « أرجو منك أن تجدّ قليلاً . . . فلست أعرف أرْزَنَ منك عقلاً عندما تشاء . . . فعَدٍّ إذن عن المُزاح ، وأهِبْ بعقلك وحَصافتك . »

فاستبدل الرجل بقَسَماتِه الضاحكة قسمات العبوس والصرامة ، فقالت له عمّتي :

— « يا سيّد " ديك " لقد سمعتني مراراً أتحدّث عن " دافيد كوبرفيلد " . »

فأخذ الرجل يُديرِ رأسه فى أنحاء البَهْو كمن يريد أن يتذكّر أمراً ثم قال :

— « " داڤيد كوبرفيلد " . . نعم . نعم . هذا صحيح ! » فقالت عمتى وهى تشير إلىّ :

— « هذا ابنه . . . وإليك السؤال الذى أريد أن أوجّهه إليك . . . ماذا عساى أصنع بهذا الغلام ؟ »

فحكّ الرجل جبينه وقال :

— « ماذا عساكِ تصنعين به ؟ » فقاطعته قائلة :

— « أجل ماذا عساى أصنع به ... حذارِ !! أريد منك رأياً خميراً . »

فنظر إلىّ السيد « ديك » نظرة عابرةً وأطرق هنيهة ثم قال :

— « تبدئين أوّلاً بالسماح له بالاستحمام . » فصاحت عمّتى صيحة الظافر المنتصر وقالت للخادمة :

— « "جانيت" ! أوقدى الحمّام . إن السّيد " ديك " لَعلى حقٍّ وصواب . »

وأدهشنى أن أرى الرجل يتألّق وجهه سروراً من المديح الذى غمرته به عمتى ، وتخيّلته رجلاً لا يخلو من البلاهة ، ولكننى لم أستطع أن أفهم كيف يُقيم مثل هذا الرجل فى منزل عمّتى .

وأنعشنى الحمام فخرجت منه نشيطاً قويّاً وجاءتنى عمّتى بقميصٍ من

قمصان السّيد « ديك » فلبسته وإن يكن قميصاً فضفاضاً ، ثم رأيتها قد أعدّتْ لى بعض الحساء ، فجلستْ قبالتى وأنا أحتسيه .

ونهضتْ فجأة تنادى السّيد « ديك » فأقبل على عَجَل ، فطلبت إليه أن يُصْغى كلّ الإصْغاء إلى قصّتى التى سأسردها عليهما ، فأخذتُ أرْوى قصّتى ، وكانت عمّتى طول الوقت تحدّق فى السيد « ديك » تحديقاً شديداً ، وكلما همّ الرجل بالابتسام ، قطّبتْ حاجبَيْها وعبست فى وجهه ، فعاد يتصنّع الجدّ . فلما فرغتُ من روايتى قالت عمّتى تخاطب السيد « ديك » :

ــ « والآن . . . انظر جيّداً فى وجه هذا الغلام ، فعندى سؤال سأوجهه إليك . » فقال السيّد « ديك » :

ــ « إنه ابن " داڤيد " . » فقالت عمّتى :

ــ « ولهذا أسألك ماذا تصنع به ؟ » فقال :

ــ « ماذا أصنع بابن " داڤيد " ؟ » فقالت عمّتى :

ــ « نعم ماذا تصنع بابن " داڤيد " ؟ » فقال السيد « ديك » :

ــ « آه ! ماذا أصنع به ؟ أضعه فى الفراش . » فصاحت عمّتى صيحة المنتصر الظافر :

ــ « " جانيت " إن السيد " ديك " لعلى حقّ وصواب . . . أعِدّى السرير ليستلقى إليه هذا الغلام . »

فأُعِدَّ السرير ، واستلقيت إليه بقيّة النهار ، ونمت الليل كله نوماً هادئاً ، وفى الصباح نزلت إلى غرفة الطعام فلقيتُ فيها عمّتى مستغرقةً فى تفكير عميق ، فنبّهها دخولى الغرفة فصاحت عندما رأتنى وقالت :

— « لقد كتبتُ إليه . . . » فقلت :

— « إلى . . . » فقاطعتنى قائلة :

— « إلى زوج أمّك . » فقلت مضطرباً :

— « أقلتِ له أين أنا يا عمّتى ؟ » فقالت وهى تهز رأسها :

— « نعم . » فقلت متلعثماً :

— « أوَتدفعيننى إليه يا عمّتى ؟ ! » فقالت :

— « لستُ أدرى . . . سنرى . » فقلت يائساً :

— « يا إلهى . . . رُحماكِ يا عمتى ولا تسمحى بأن أعود إلى السيد " مردستون " . » فقالت عمّتى :

— « لست أدرى . . . سنرى . سنرى . »

وفى أثناء النهار حاولت عمتى أن تعرف رأيى فى السيد « ديك » فأثنيتُ على ظَرْفه ورقّة حاشيته فقاطعتنى وقالت :

— « يقولون إنه مجنون مسلوبُ العقل . . . ويَلَذُّ لى أن أعرف أنه مجنونٌ مسلوبُ العقل وإلا ما تمتعتُ بصحبته ونصائحه منذ نحو عشر سنوات . . . إن السّيد " ديك " حليفى ولست فى حاجة إلى أن أبيّن لك

نوع هذا الحلف . . . فلولاى لاعتقله أخوه وزجّه فى مستشفى الأمراض العقلية . . . إنه أبْلَه متكبر . . . وأعتقد أن أخاه هو المجنون . . . فلما حَمِيَ وطيسُ الشِّجار بينهما قلتُ لأخيه إنه هو المجنون .. . وطلبت منه أن يرصد له راتباً يعيش منه وأن يقيم فى منزلى ... أنا لست أخشاه ولا أسىء معاملته ... وها هو ذا مقيم معى وإنى لأراه لطيف المعْشَر حُلْوَ الطِّباع ... أمَّا آراؤه النيِّرة فما من أحدٍ يَقْدُرها قَدْرَها غيرى . »

وقع كلامُ عمتى من قلبى موقعاً جميلاً وهى تدافع عن المظلومين فى شخص السيد « ديك » ، وعلَّلت نفسى بأنها لن تكون معى أقلّ كرماً ورعاية منها مع هذا الغريب عنها ، فبدأتُ ، على طباعها الشاذّة ، أشعر نحوها بالتجلّة والتعظيم .

وأقبل علينا فى اليوم التالى السيّد « مردستون » وشقيقته ، فرحّبت بهما عمّتى ، ونادت على الفور السّيد « ديك » فجاء مسرعاً ووقف بين هؤلاء القوم وقفةً خطيرة ، كمن يريد أن لا تفوته شاردةٌ ولا آبدة من حديثهم ، فاستهلّ السيّد « مردستون » الكلام وقال :

— « لمَّا تسلّمتُ رسالتك يا سيّدتى ، رأيتُ من واجبى ومن فروض الإجلال لك . . . » فقاطعته العمّة وقالت :

— « أشكرك . . . لا تحسب حسابى . » فتابع السيّد « مردستون » كلامه قائلاً :

ـ «... أن يكون مجيئي إليك هو الجواب عن رسالتك ... فهذا الغلام الطائش الذى فرّ من أصحابه وعمله . . . » فقاطعته شقيقته قائلة :

ـ « والذى تلوحُ على سيمائه سماتُ طيشه وسُوء أخلاقه . » فنهرها شقيقها وقال :

ـ « لا تقاطعيني . . . إن هذا الغلام يا آنسة " تروتوود" قد سبّب لنا متاعب جمّة ، فهو غلامٌ ثائر متمرّد ، وكم حاولتُ أنا وشقيقتى أن نصلح المعوجّ من أخلاقه فما أفلحنا ... وها نحن أولاء قد جئنا ننفضُ إليك جليّة الأمر فى صدقٍ وإخلاص . » فقالت عمّتى بلهجة جافّة :

ـ « هذا كثير ! » فقالت الآنسة « مردستون » :

ـ « الوقائع تثبت ما رواه أخى ، فقد ألحقه بعملٍ جليل ولكنه هرب منه . » فقالت عمتى تخاطب السيد « مردستون » :

ـ «لنبحثْ أوّلاً فى هذا العمل الجليل ... فلو كان هذا الغلام ابنك ، أكنت ألحقته بذلك العمل الجليل ؟ » فقالت الآنسة « مردستون » تجيب هى عن السؤال :

ـ « لو كان هذا الغلام ابن شقيقى ، لما كان شرس الأخلاق سيّئ السُّلوك ! » فقالت عمتى :

ـ « يا للمسكين ! أوَلمْ يورّثْه أبوه أو أمه شيئاً؟» فقال« مردستون » :

ـ « كلُّ ما تركه أبوه من مال ، كانت أمه قد أنفقته فى سبيل



العيش قبل أن أتزوّجها . وكيفما كان الأمر فإنى على استعداد لاسترجاع هذا الغلام ، شرطَ أن لا يدخل أحدٌ بينى وبينه ، فأصنع به ومنه ما أريد . »

فقالت عمتى موجّهة إلىّ السؤال :

— « وأنت يا "داڤيد" أترغبُ فى الرحيل مع السيّد "مردستون" ؟ »

فتوسّلتُ إلى عمّتى أن لا تدفعنى إلى السيّد « مردستون » وشقيقته فهما لا يحبّانى ، ولقد ماتت أمى مقهورة أسيفة على ما كانا يُضْمِران لى من كراهية ، فالتفتت عمتى إلى السيّد « ديك » وقالت :

— « يا سيد " ديك " ماذا أنا صانعةٌ بهذا الغلام ؟ » ففكر السيّد « ديك » قليلاً ثم قال مبتسماً :

— « اذهبى به إلى الخيّاط ، وأوصى له على بذلة جديدة . » فصاخت عمتى صيحة المنتصر الظافر :

— « يا سيّد" ديك "هاتِ يدَك لأصافحها . . . إن رجاحَة عقلك وصوابَ رأيك أمرٌ لا يقدّر . »

وبعد أن صافحت عمّتى السيّد « ديك» جذبتنى إليها وقالت تخاطب السيّد « مردستون » :

— « إنى سأحتفظ بهذا الغلام . . . فإن كان على مثل الأخلاق التى زعمتم ، فسوف أحذو حذوكم فى إصلاحه ، ولكننى لا أصدّق

حرفاً مما قلتماه . . . مع السلامة يا سيّدى . . . مع السلامة يا آنسة ! »

وما كادا ينصرفان حتى هجمت على عمتى أعانقها ، وعلى السيّد « ديك » أصافحه .

وتوثّقت أواصر الصداقة بينى وبين السيد « ديك » فكنا نخرج معاً إلى الحقول ، وأقضى أوقاتاً جميلة فى صحبته ، ولم تحل صداقتى دون أن أحتفظ لعمتى بأكرم جميلٍ فى قلبى .

فرغنا ذاتَ مساء من تناول العشاء، ودخلنا البهو نَتَسْمُر فيه قليلاً فقالت لى عمّتى :

— « علىّ أن أعنَى يا " داڤيد " بتربيتك وتعليمك، أيسرك أن تلتحق بالقسم الداخلى من مدرسة " كنتربرى " ؟ »

فسرّنى هذا العَرْض وأجبت على الفور بنعم، وإن يكن قد ساءنى فراق عمتى والسيّد « ديك » على أنهما وعَدانى بأن يزورانى من حين إلى حين .

ويوم أوصلتنى عمتى إلى المدرسة ، استقبلنا فيها فتى فى نحو الخامسة عشرة من سنه ، أحمرُ الشعر شاحبُ اللون ، قد انتثر النَّمش فى خدّيْه ، ويكاد يخلو وجهه من شعر الحاجبين ، وتخلو جفونه من الأهداب ، وكان يرتدى رداء أسود ويربط قميصه بربطة عنق بيضاء فقالت له عمتى :

— « هل السيّد " ويكفيلد " هنا يا " هيب " ؟ » فقال بعد أن أشار بيده الشاحبة المعروقة :

— « نعم يا سيدتى . إنه فى هذه الغرفة . »

ودخلنا على السيد « ويكفيلد » فرأيت معه صبية حسناء فى مثل عمرى ، فعرفتُ أنها ابنته وأنها تدعى « أنييس » كما علمت بعد ذلك أن الرجل مع اضطلاعه بشؤون المدرسة ، يزاول بعض الأعمال الزراعية والمالية ويديرها لحساب موكّليه ، فعهدتْ عمتى فىّ إليه ، ثم ودّعتنى ، فشكرتها من أعماق قلبى على جميل رعايتها ، ووعدتها أن أكون عند حسن ظنّها .

وقضيتُ أياماً جميلة فى المدرسة منصرفاً إلى تلقّى العلم كلّ الانصراف ، وكنت سعيداً جدًّا برعاية الناظر وبقضاء أكثر أوقات فراغى مع ابنته « أنييس » اللطيفة الجميلة . ولست أنسى كذلك « هيب » ذلك الفتى الشاحب اللون الأحمر الشعر ، فكنت كلما دخلت عليه فى غرفته رأيته مستغرقاً فى القراءة ، وكانت الكتب التى يقرؤها ضخمة الحجم فعلمت منه أنها كتب قانون وأنه يدرس الحقوق فقلت له يوماً :

— « إنك رجل عظيم يا سيد " هيب " . » فتبسم وقال :

— « كلا يا سيد " كوبرفيلد " فما أنا فى هذه المدرسة إلا خادم ينتسب إلى أسرة رقيقة الحال ، ولولا عطف ناظر هذه المدرسة وكرم أخلاقه ، لما تمكّنت من هذه الدراسة التى ترانى منكبًّا عليها . » فقلت :

— « ستصبح يوماً محامياً أو وكيل نيابة أو وكيل أعمال . » فقال :

— « إن شاء الله . » فقلت :

— « ومن يدرى لعلك تصبح يوماً شريك الناظر " ويكفيلد " أو وارثه من بعده ! » فقال مبتسماً ابتسامة اليأس :

— هذا من رابع المستحيلات يا سيد " كوبرفيلد " فأنا كما قلت لك من أسرة متواضعة رقيقة الحال ، ومثل هذه المهنة لا يقبل عليها إلا أناس من بيئة معروفة ، ولا تنجح إلا بين أيديهم ، ومن يدرى فلعلك أنت تصبح يوماً شريك السيّد " ويكفيلد " فى أعماله الواسعة . » فقلت :

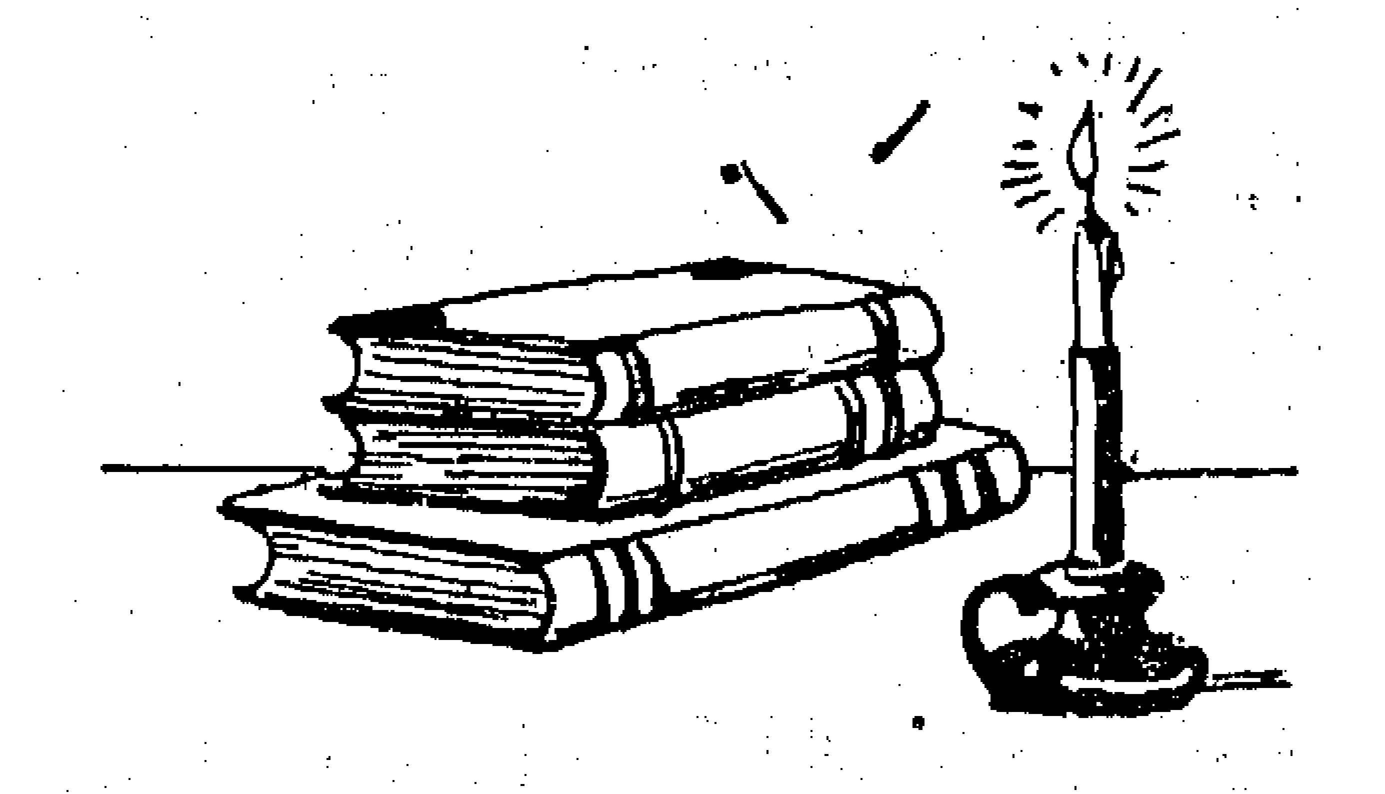
— « حقق الله ظنك يا سيدى . »

كنت طول أيام الدراسة ، أراسل « بيجوتى » مراسلة منتظمة ، فوقفتها على جميع أحوالى ، وأعدت إليها نصف الجنيه الذى كنت اقترضته منها ، ولم تُخْفِ عنّى دهشتها من عمل عمتى وتصرّفها الكريم بعد أن صوّرتها فى نفسها على هذه الصورة . ولقد أعلمتنى ذات يوم أن السيد « مردستون » وشقيقته قد هجرا المدينة وباعا أثاث المنزل ، فأبلغتُ عمتى النبأ فى بعض زياراتها لى . وكان السيد « ديك » كذلك يزورنى مرّة فى كل أسبوعين ، فتعرّف فى هذه الزيارات المتكررة على جميع من أودّ وأجلّ وأصاحب ، من ناظر المدرسة إلى ابنته « أنييس » الجميلة إلى السيّد « هيب » المجتهد المجاهد .

واتفق أن دعانى مرة « هيب » إلى تناول الشاى فى منزله المتواضع الذى كان يعيش فيه مع والدته ، فبينا نحن نتناول الشاى ، وقد فتحنا الباب المفضى إلى الشارع ، إذا برجل يمرّ بنا ثم يدخل المنزل ويصيح :

— « أهذا ممكن ؟ السيّد " كوبرفيلد " هنا ؟ »

ولم يكن هذا الزائر المفاجئ إلا السيد « مكوبر » فأقبل علىّ يحيّينى ويدهش من ذلك اللقاء ، فاستراح قليلاً وخرجت معه إلى زيارة زوجته فى الفندق ، فسُرّت بلقائى وحدّثتنى عن سوء الحظ الملازم زوجها ، وأنهما جاءا ليزورا المدينة ويقفلا راجعين إلى « بليموث » ، وهكذا كان ...





٥

لستُ أدرى أكنت مغتبطاً أم حزيناً ، يومَ أنهيتُ دراستى ، وحقّ علىّ أن أغادر المعهد الذى تلقيت فيه علومى ، فقد كنت فى ذلك العالم الصغير ، الفتى الذى يسترعى الإنتباه ، ويحفّونه بكل أنواع الرّعاية ، ويقدرون أخلاقه ومواهبه حقّ قدرها . ولئن عزّ علىّ مفارقة ذلك الفردوس الصغير ، لقد سرّنى أن أخرج إلى العالم الكبير ، وأشعر أنى فيه رجل حُرّ مسؤول عما يفكّر وعما يعمَل .

تبادلتُ وعمّتى الآراء فيما يختص بمستقبلى ، وبالعمل الذى أميل إليه ، وكان ذلكَ همها الأكبر منذ أن تركتُ المعهد ، حتى إنها قالت

لى ذاتَ يوم :

ــ «مهما زاولتَ من الأعمال فيَعْنيني ويعنيك أوّلاً ، أن تكون الرجلَ الحازم ، القويّ الإرادة ، الموفور السلطان على نفسك وعملك ، فلو أن أبويك كانا على شيء من قوّة الإرادة والحزم ، لتبدّلت بهما الحال ، وكانا أقدرَ على مواجهة مصاعب الحياة . . . إنى أريدُك ذلك الرجل القويّ الحازم . . . أفهمت ؟ » فقلت :

ــ « سأعمل بنصيحتك يا عمتى وأرجو أن أكون عند حسن ظنك . »

وبعد مداولة ومشاورة التفتت إلىّ وقالت :

ــ « أرى قبل أن تختار المهنة التى تصبو إليها ، أن تقوم برحلة قصيرة فى أنحاء الوطن ، فتزور مسقط رأسك ، وتلتقى بتلك الفتاة الغليظة التى عُنيت بعض العناية بتربيتك وتنشئتك . . . ماذا تسمى ؟ » فقلت :

ــ « " بيجوتى " . » فقالت :

ــ « " بيجوتى" . أجل "بيجوتى" وإنه لاسم أرْقَى وأجمل من أن يكون علماً لخادمة ! »

وزوّدتنى عمتى بصُرّة من النقود ، مشفوعة بدعواتها الصّالحات ، فشددتُ الرّحال أوّلاً عائداً إلى المعهد لأودّع الآنسة « أنييس » وأباها الناظر ، وكان « هيب » قد التحق بكلية « أكسفورد » فذهبت ألقاه هناك ، ثم صحبته معى إلى زيارة « بيجوتى » وإلى الطواف بالمدن والقرى

التى رغبتُ فى مشاهدتها ، وعدتُ بعد مدّة إلى عمّتى وأنا فَرِح مسرور مملوءُ الذهن والنفس بالآراء والخواطر ، وعجبتُ كل العجب لما علمت أنها قد سئمت من صحبة السيّد « ديك » فأمرته بمغادرة المنزل ، فاستوضحتها عن السّبب فقالت :

ـ « لم يَعُدْ على ما عهدتُه عليه من حَصافة الرأى وثُقوب الذهن ، وأصبح يُعْوِزه الحزم فى أن يطرد الحمير التى تُغير على حديقتى وترعى النبات فيها . » وبعد أن تناولنا العشاء فى ذلك المساء ، وجلسنا معاً إلى الموقد نصطلى ، التفتت عمّتى إلىّ فجأة وقالت :

ـ « أفكّرت يا " داڤيد " فيما كنت قد اقترحته عليك من مزاولة مهنة المحاماة ما دمت قد أتممت دراسة الحقوق ؟ » فقلت :

ـ « نعم يا عمتى . لقد فكّرت فى ذلك طويلاً وحدّثت عنه صديقى " هيب " . »

ـ « هذا ما يسرنى . »

ـ « ولكنّ هناك عقبةً دون ذلك يا عمتى . » فقالت مستطلعة :

ـ « وما هى ؟ » .

ـ « لا بدّ من مبلغ من المال يدفع للمحامى الذى سأتمرّن فى مكتبه . »

ـ « أعرف ذلك . . . إنه مبلغ ألف جنيه . » فقلت :

ـ « إنه مبلغ جسيم يا عمّتى ، ولا أوَدّ أن أحمّلك هذا العبء الثقيل بعدما

بذلتِ ما بذلتِ فى سبيل تنشئتى وتعليمى . . . صحيحٌ أنى ظفرت بالشهادة التى تبيح لى الانخراط فى سلك المحامين ولكن ألا ترين أن أجرِّب حظِّى فى غيرها من المهن توفيراً لهذا المبلغ الكبير ؟ » فقالت مندفعة :

— « إنى أعدّك يا " داڤيد " ابنى بالتبنّى ، فثروتى هى ثروتك ، وأقصى أمانىّ فى الحياة هى أن أراك موَفّقاً ناجحاً سعيداً . . . وإنى لأذكر الثناء المستطاب الذى أثنى به عليك السيّد " ديك " يوم فاتحته فى أمر انتظامك فى عِداد المحامين . . . وما من أحد غيرى يستطيع أن يقدر آراءه النيّرة حقّ قدرها ... إذن لقد اتّفقنا ... ستنخرطُ فى سِلْك المحامين... وغداً سنذهب معاً إلى النقابة لتسجيل اسمك فيها . . . »

وبكرنا فى صباح اليوم التالى فى الرحيل إلى « لندن » ولقاء الأستاذ « سپنلو » وزرناه فى مكتبه فرحّب بنا أجمل ترحيب ، وبعد مقدّمة جميلة التفت إلىّ وقال :

— « إذن تريد يا سيّدى أن تنتظم فى سلك المهنة الشريفة . . . لقد أخبرت الآنسة " تروتوود " عندما زارتنى منذ أيام ، أن فى مكتبى مكاناً شاغراً لمحامٍ ناشئ يقضى فيه مدّة التمرُّن ، ويسوءنى أن أتقاضى منكما الرسم المقرر لمكتبنا وهو ألف جنيه ، وما كنت لاحتّم عليكما دفع هذا المبلغ لولا أن شريكى الأستاذ " جوركنس " مصرٌّ على تقاضى المبلغ ، فهو فى المسائل المالية قرْمٌ عنيد . »

وبدا لى من كلامه أنه رجلٌ خبيرٌ بشؤون الحياة ، ويعرف من أين تُؤْكل الكتف ، ولما استأذناه فى الانصراف ، ودّعنا حتى باب المكتب فى لطف زائد ومجاملة لا نظير لها ، وكان همُّ عمّتى بعد ذلك أن تدبّر لى مكاناً أقيم به فى تلك المدينة الواسعة ، فأخرجت من جيبها قُصاصة جريدة تحتوى على إعلان عن مسكن للإيجار ، فذهبنا توًّا إليه ، فاستقبلتنا فيه سيّدة بدينة طافت بنا فى أنحاء المسكن ترينا محاسنه ونوافذه المشرفة على النهر ، ثم اختلت السيدتان معاً ، وتداولتا فى الشروط ، وعادتا إلىّ وقد ارتسمت على وجه كل منهما علامات الارتياح .

يا لله ! ماأجْمَلَ الحرية والاستقلال ! وما أجْمَل أن ينعم الإنسان بمأوى يستأثِرُ به ويشعر فيه أنه سيّد الكون وسيّد حركاته وسكَناته ...

وما هى إلا أيام قلائل ، حتى تلقّيت وأنا ذاهب فى الصباح إلى عملى ، رسالة من « أنيبس » تذكر لى فيها أنها تزور مكتب والدها فى « لندن » وتضرب لى موعداً للقاء فيه مساء ذلك اليوم . والتقينا فى الموعد المضروب ، وبادرتها بالتحية التى اعتدت أن أحيّيها بها وهى :

— « مساء الخير يا ملَكى الحارس . » فتبسّمتْ وقالت :

— « إن صحّ أنى ملاكك الحارس ، فأوَدُّ أن أحذّرك من ملَك السُّوء . » فقلت :

— « لعلك ترمزين إلى "هيب" ! » فقالت :

— « نعم . إنه يعمل الآن كاتباً عند والدى وينوب عنه فى كثير من أعماله فهو ذكىٌّ نشيط كفىّ ولكنه غير سليم الطويّة . » فقلت :

— « إنك تسيئين الظن به يا عزيزتى . . . وإلامَ تستندين فى الحكم عليه ؟ » فقالت :

— « إلى أسباب كثيرة ، هى فى مظهرها تافهة ، وفى مَخْبرها كبيرةُ الخطر ، ثم إن سلطانه عليك وتأثيره فيك هما مَدْعاة مخاوفى . »

وكان فى صوتها رنّة من الحذر ملكتْ علىّ مشاعرى ، ثم استأنفت حديثها » وقالت :

— « قد تقولُ إنى فتاة عاشت حتى اليوم فى عزلةٍ عن تيّار الحياة الجارف ، فليست لدىّ القدرة إذن على سَبْر أغوار البشر ، والحكم على ما تنطوى عليه جوانحهم من خير أو شرّ ، ولكننى ما إخالنى مخطئة فى شعورى وإحساسى . . . »

فشمل وجهَ «هيب» فى قلبى سحابةٌ داكنةٌ ، ورُحْت أفكّر فى الأسباب الخفيّة التى حملت « أنيبيس » على تحذيرى منه ، فقطع علىّ تفكيرى صوتها الحلو وهى تقول مستأنفة :

— « لستُ من الغَباوة بحيث أعتقد أن فى مقدور الإنسان أن ينتزع من قلبه عاطفة قويّة وعقيدة راسخة فيه ، ولا سيّما إذا كان لهذا الإنسان مثل عنصرك الطيّب وسلامة نيّتك ... وكل ما أطلبه منك أن تكون على

حذر فى علاقتك بهذا الشاب ، وان تذكر انى حذرتك منه . »

وخضنا بعد ذلك فى أحاديث منوّعة ، ويشاء القَدَر فى مستقبَل الأيام أن يثبت لى أن « أنيبيس » كانت على حق فى مخاوفها ، فقد شاء « هيب » أن يسدل ستاراً صفيقاً على أصله الوضيع ، فطغى وتكبّر ، واعتدّ بمواهبه الفكرية ، وكان دَيْدَنُه فى الحياة العَسْف والجور والكبرياء ، حتى أصبح يسىء معاملة الناس بل معاملة أمّه المسكينة ، فافترق عنها افتراقه من مخلوق يجلب له الحياء والعار .

وفى مقابلة أخرى أنهتْ إلىّ « أنيبيس » وهى تنتفض سخطاً وغضباً أن « هيب » قد أصبح شريك والدها ، فلمّا أبديتُ لها دهشتى من قَبولها تلك الشركة بعد الذى تعرفه من أخلاق « هيب » ومطامعه وجبروته وضعة أرُومته ، قالت لى والأسف يملأ قلبها :

ـ « تعلم يا عزيزى " داڤيد " أنى وحيدة أبى ، وأنى أحبّه حبّاً جمّاً ، ولا أتوانى عن القيام بأية تضحية مهما جلّت وكبُرت لأوفّر له الطمأنينة وراحة البال ، وأفعم أيامه بالبهجة والمسرّة . »

ساءنى أن أتلقّى من « أنيبيس » هذا النبأ ، وسَرَح خيالى فى التضحية الكبرى التى قد تُقْدم عليها إرضاءً لوالدها ، فهممت أن أسألها عن مقدار تلك التضحية الكبرى فسبقتنى إلى الكلام وقالت :

ـ « لقد ظلّ يحيط والدى بمظاهر شتّى من عنايته ومساعدته والسهر

على أعماله ومصالحه حتى وَثِقَ به كلَّ الوثوق ، فأصبح لا يقوم بعمل من الأعمال ولا يتّخذ رأياً من الآراء إلا بعد مشاورته والإذعان لرغبته . . . »
فقاطعتها مدهوشاً مُغْضَباً :

– « عجباً منك يا " أنييس " أتحذّرينى من هذا الشاب ، ولا تحذّرى نفسك منه ؟ » فقالت كاسفةَ البال :

– « قبلتُ كل هذا حبًّا لأبى ، ولسوف أقبل بأكثر من هذا برًّا به وبشيخوخته ! ! »

والتقيت عرَضاً فى بعض الأيام بالفتى « هيب » وكنت منذ حذّرتنى « أنييس » منه قد تراخيت فى لقائه ومودّته ، فحيّانى تحيّة الرجل الهانئ السعيد ، وأخبرنى أنه أصبح شريك والد « أنييس » وأنه الآمر الناهى فى كلّ صغيرة وكبيرة من أعمال والدها وثروته ، فاستمعت له صامتاً حتى رأيته قد بلغ منتهى الجرأة والقِحة حين ختم حديثه وهو يقول :

– « وفى نيّتى أن أشرّف " أنييس " بطلب يدها ! »

وافترقنا وأنا أرثى لحال « أنييس » وأستعيد فى ذهنى ما كانت قد أنهَتْه إلىّ من أنها لن تُحجِم عن قَبول أيّة تضحية مهما جلّت وكبرت حبًّا لأبيها ، فقلت فى نفسى : « إن لم يكن هذا الزواج هو التضحية الكبرى فماذا تكون إذن التضحية . . . أمثلُ هذا الفتى الوضيع السيّء الأخلاق الدميم الحاذق يكون زوجاً لمثل "أنييس" ملَكى الحارس ؟ ! »

وأخذتُ أقارن بين نذالة هذا الشاب وصفاء نفس تلك الفتاة المتلألئة بحب أبيها والبرّ به . . .

ومضت الأيام والأسابيع وأنا قائم بعملى فى مكتب الأستاذين «سپنلو وجوركنيس » وكانت عمّتى قد خصّصت بى مبلغ ثمانين جنيهاً فى السنة فضلاً عن إيجار السكن وبعض النفقات الأخرى . ودعانى يوماً الأستاذ « سپنلو » إلى زيارته فى منزله الريفى ، وتلطّف فوعدنى بأن يصحبنى إليه ويعيدنى منه بمركبته الخاصّة ، فعلمت من الأحاديث التى تبادلناها فى أثناء الطريق أن له ابنة وحيدة تسمى « دورا » وأنها قد أتمت دروسها فى بعض المعاهد الفرنسية ، ومالت إلى السكنى فى منزله بالريف .

وصلنا إلى المنزل واجتزنا حديقته الجميلة ، ودخلنا البهو الكبير فاستقبلتنا فيه الآنسة « دورا » وسيدة أخرى فقال الأستاذ « سپنلو » :

ـ « عزيزتى "دورا " ويا حضرة الآنسة أقدّم لكما السّيد " داڤيد كوبرفيلد " . »

ثم مال علىّ وهو يقول مشيراً إلى السيدة الأخرى :

ـ « إن الآنسة صديقة ابنتى وموضع ثقتها . »

وبينما كنت أردّ على التحيّة وشرَف التعرّف ، سمعتُ صوتاً غير غريب عنّى يقول :

ـ « لقد سبق لى أن عرفتُ السيّد "كوبرفيلد " ! »

ولم تكن صاحبة الصوت الآنسة « دورا » بل صديقتها الآنسة « مردستون » ، فقلت بعد أن زالت عنى عوارض الدهشة :

— « كيف حالك يا آنسة " مردستون " ؟ لعلك فى صحة جيّدة ! »

— « على أتمّ صحة وسلامة ! »

— « وكيف حال السيّد " مردستون " ؟ »

— « إن أخى فى أوفر سلامة وعافية . . أشكرك . » فقال الأستاذ « سپنلو » :

— « يسرّنى أن أراك تعرف الآنسة " مردستون " معرفة قديمة ! »

فقالت الآنسة « مردستون » بلهجة هادئة قاسية :

— « إن بينى وبين السيّد " كوبرفيلد " صلةً من النّسب . . . فقد عرفته قليلاً فى طفولته ، ثم فرّقتنا الأحوال . » فقال الأستاذ « سپنلو » يخاطبنى :

— « لقد تفضّلت الآنسة " مردستون " فقبلتْ أن تكون رفيقة ابنتى ورائدتها بعد إذ حرمت الأقدار ابنتى " دورا " حنان الأم وعطفها » .

فحدّقت فى الآنسة « دورا » أدرس حركاتها وسكناتها فخيّل إلىّ أنها لا تشاطر أباها رأيه فى أن تكون الآنسة « مردستون » صديقتها وموضع ثقتها ، ولقد نزلت من قلبى أكرم منزلة منذ اللحظة الأولى التى رأيتها فيها ، وحرّكت نبراتُ صوتِها أوتارَ فؤادى فصارت أعزّ أمنيّة لى فى الحياة أن أظفر بيدها وأن تصبح زوجتى .



وكان موضعي إلى مائدة العشاء فى جوارها ، فنعمتُ بحديثها وبصوتها الساحر الحلو النَّغَمات ، وأعجبتُ بكل حركة من حركاتها النبيلة الفتّانة .

وانتقلنا بعد العشاء إلى البَهْو نسْمُرُ فيه ونتحدّث ، وشغلت الآنسة « دورا » أغلب الوقت فى الغناء والعزف على آلة تشبه القيثارة ، فقضيت سهرة جميلة ممتعة لم تزدنى إلا شغفاً بالآنسة « دورا » وتعلقاً بجمالها ومواهبها .

وعندما تفرّقنا وذهب كلٌّ منا إلى غرفته ، استوقفتنى الآنسة «مردستون» عند باب الغرفة التى استضافونى فيها ، وطلبتْ إلىّ أن تحدّثنى قليلاً فأصغَيْتُ إليها تقول :

— « لقد جمعتنا الأقدار بعد فراق ، ومهما يكن من أمر الماضى الذى نحتفظ منه بأسوأ الذّكْريات ، فلا إخالك إلا موافقاً على أن نسدل عليه ستار النّسيان ، ولاسيّما أننا قد نتلاقى كثيراً بعد اليوم فى هذا المنزل أو فى غيره من منازل هذه الأسرة ، فلا حاجةَ بنا إلى أن نُذْكِي جمْرَ البغضاء الكامن تحت رماد الأيام فى قلبينا ولا إلى أن نوفّر للقوم أسباب الشماتة فينا . . . » فقلت :

— « إنى أوافقك يا آنسة " مردستون " على ما تقترحين ، ولكن ثقى أنى لن أنسى أبداً ما لقيته منك ومن أخيك من سُوء المعاملة ، وما سبّبتماه لأمى من حزن وكآبة . . . »

وتبادلنا التحية المؤدّبة ، وانفلت كلٌّ إلى غرفته . ولمّا لقيت الآنسة

« دورا » فى الصباح تجول فى أنحاء الحديقة سألتنى مستفهمة :

ـ « أبينك وبين الآنسة "مردستون" صلة قُرْبى وثيقة ؟ » فقلت نافراً :

ـ « كلاّ يا آنسة . » وكأنما ارتاحت إلى جوابى فقالت :

ـ « لست أدرى أين عثر والدى على الآنسة " مردستون " فاختارها رفيقةً لى . أتكون مثل هذه العانس الكهلة الدائمة التذمُّر والشكوى ، رفيقة موافقة وموضع الثقة والوداد ؟ إن الأصدقاء والنُّدماء يختارهم الإنسان هو نفسه ، ولا يَكِلُ أمر اختيارهم إلى أحدٍ غيره ... أفيجب أن أحْرَم مزيّة التصرّف الحرّ إذا كان القَدَرُ القاسى قد حرمنى حنان الأمّ ؟! »

فهززتُ رأسى هزّات خفيفة تأميناً على كلامها ، وقضيت نهار ذلك اليوم ومساءه فى ضيافة « دورا » وأبيها ناعماً بأوفر ما ينعَمُ به المرء السعيد من حديث طلىّ ، وزادٍ روحانىّ شهىّ ، مع أن الآنسة « مردستون » ما كانت تفارقنا لحظة واحدة . . . ومنذ ذلك اليوم أصبحت أتأنّق فى معيار ربطات العنق ، ولون القُفّاز ، وصنف القمصان والحذاء . . .





٦

خَطَرَ لى ذاتَ يوم أن أزور رفيقاً من رفقاء الدراسة يدعى « جاك » ، كنت قد التقيتُ به اتفاقاً فى أحد الشوارع ، بعد أن باعدت الأيام بينى وبينه ، فقصّ علىّ ما لقى من عَنَت الزمان وقسوته ، ودلّنى على عنوان مسكنه ، ورجا منى أن أزوره لنستعيد معاً ذكريات الطفولة والحداثة .

ولقد تبيّنتُ من الشوارع والأزقّة الحقيرة التى اجتزتُها للوصول إليه ، أن الفتى لم يبالغ فى شكواه من بُخْل الدهر وتقتيره عليه .

وقضيتُ مع رفيق الحداثة بعض الوقت نستعرض ذكريات الماضى ، حتى تطرّقْنا إلى حديث الحاضر ، فعلمت منه أن ضيق ذات يده حالَ

دون أن يلتحق بمكتب أحد المحامين ليقضي فيه مدة التمرّن، فاضطُرّ إلى الالتحاق بوظيفة كاتب فى مكتب أحد وكلاء الأعمال ، إلى أن يفتح الله عليه فيدّخر مبلغ الرسم المطلوب ، ولكنه يائس من الوصول إلى تلك النتيجة السعيدة .

وحدّثنى فيما حدّثنى به أن المرء إذا اعتبر بمصائب غيره هانت عليه مصائبُه ، وأخبرنى أن الأسرة التى تقطن الطبقة الأرضية من المبنى المقيم هو فيه ، أسرةٌ تتألّف من زوج وزوجته وعدد كبير من الأولاد ، وأن ربّ الأسرة لا يكاد يستطيع أن يقوم بأوَد زوجته وأولاده ، فقد تألّب عليه الدهر يحاربه حرباً ضروساً فى رزقه ورزق عياله ، ولاتراهم مع ذلك إلا ضاحكين باسمين للحياة، كأنهم منها على سعةٍ ويُسْرٍ . فقلتُ للرفيق « جاك » بعد إذ سمعت حديثه :

— « كنتُ عرفتُ فيما مضى أسرةً على مثل هذا النحو الذى وصفت ، فربُّها كان يتعاطى الدّلالة فى مختلف الأصناف، ويزاول متباين المِهَن ، ولكن لم يكن يظفر بالرّزق إلا قطرةً قطرة ، وكان هو وجميع أفراد أسرته مع ذلك لايتذمّرون ولا يتأفّفون، بل يقابلون عَبْسَة الزمن ببسمة الرضى والاستسلام ، ولقد كنتُ أظنّ أنها أسرةٌ لا نظير لها بين البشر ، وها أنت ذا تحدّثنى عن شبيه لها ونظير . » فقال « جاك » :

— « لو عرفتَ ربّ هذه الأسرة وحدّثته لأمّنْت على كلامى، ولرأيته

أفقرَ وأظرف من ربّ الأسرة التى تحدّثنى عنها ، فوالله ما رأيت السيّد "مكوبر" مرّةً وهو يضحك ويمزح ، على ضَنْكه وضيق ذات يده، إلا التمستُ من حاله أبلغَ العِظات والعِبَر، على الرضى والقناعة والإيمان بالله.»

فقلت له مدهوشاً :

ــ «أتقولُ إنه يدعى "مكوبر" ؟ إن الرجل الذى أعرفه هو أيضاً يدعى "مكوبر" . . . »

ولم أكد أتمّ كلامى حتى قُرِع الباب، ودخل منه جار الرفيق ، وكان قد جاء هو وزوجته يتفقّدان شؤون صاحبى فصحنا معاً :

ــ «أهلاً وسهلاً بالسيد "مكوبر" وزوجته ! » وأضفت أنا قائلاً :

ــ «ليس فى الدنيا إلا "مكوبر" واحد رضىّ الخلق كبير النفس...»

وأقبلتُ عليه أصافحه وأصافح زوجته مصافحةً حارّةً ، وكان سرورهما بلقائى لا يوصف ، وعندما استفسرت من الزوجة عن أحوالهما ، أخبرتنى أن زوجها يتعاطى الآن الدّلالة على الثمار ولكنه عمل لا يُدرّ عليه إلا أقل من الكفاف .

وتركتُ القوم بعد فترة قصيرة ، وودّعتهم وعدتُ إلى منزلى ، فطالعتنى فيه رسالةٌ من «بيجوتى» تَنْعى إلىّ فيها زوجها «بركيس» وتخبرنى فيها أنها قادمة إلى «لندن» لقضاء بعض الشؤون ، فشقّ علىّ مصابُها واستقبلتها

بعد أيّام قلائل معزّياً وعدنا ذات يوم إلى مسكنى ، فدهشت كلّ الدّهَش إذ وجدت فيه عمّتى والسيّد «ديك» . وكانت عمّتى جالسة فوق تلٍّ من الحقائب فى حين كان السيد «ديك» واقفاً بجانب عدد من الصناديق الصغيرة فقلتُ صائحاً :

ــ « ما هذه المفاجأة السارّة يا عمّتى العزيزة ! »

وتبادلتُ وإياها العِناق والقُبُلات ، ثم صافحت السيّد « ديك » مصافحةً طويلة . أما « بيجوتى » فوقفت ذاهلة من ذلك اللقاء الغريب ، وعلى ذلك النحو الشاذّ ، ولكنها نفضت عنها الذهول واقتربت من عمّتى والسيّد « ديك » تحيّيهما .

وبعد صمت قصير التفتت إلىّ عمّتى وقالت فى جدٍّ وخطَر :

ــ « " داڤيد " هل اكتسبتَ مزيداً من الثقة بنفسك ؟ » فقلت :

ــ « أرجو ذلك يا عمّتى . » فقالت وهى مقطّبة الحاجبين :

ــ « أواثقٌ أنتَ ممّا تقول ؟ » فقلت :

ــ « أعتقد أنى جِدُّ واثق . »

فنظرتْ إلىّ نظرة طويلة وقالت :

ــ « أتدرى لماذا ترانى جالسةً فوق حقائبى ؟ » فقلت :

ــ « كلا يا عمّتى . » فقالت :

ــ « لأنّ هذه الحقائب هى كلُّ ما بقى لى فى هذه الحياة . . .

ويسوءنى أن أنهى إليك يا عزيزى أن الدهر قد رمانى بالدمار والخراب ، ففقدتُ كل ما أملك . »

فلو أن عاصفة انقضّتْ على المنزل ، وكنسته إلى النهر الجارى تحته ، لما كانت أعنفَ ولا أشدَّ أثراً فى نفسى من هذا الذى سمعته . ثم تابعت عمّتى كلامها وقالت :

— نعم يا عزيزى " داڤيد " لقد فقدتُ كل شىء إلا ما جمعت فى هذه الحقائب والصناديق ، وإلا المنزل الصغير فى الريف وقد عرضته للإيجار . » ثم التفتتْ إلى « بيجوتى » وقالت :

— « دبّرى لنا أمكنه نقضى فيها هذه الليلة توفيراً للنفقات ، وغداً سنتدبّر أمرنا . »

فهالنى وقع الكارثة ، ورثيتُ لحال هذه العمّة الطيبة القلب العنيفة المظهر ، فاقتلعتنى من وُجُومى حين سمعتها تقول لى :

— « على الإنسان أن يتحمل تقلُّب الزمان بشجاعة وصبر يا ولدى ، وعليه أن يواجه المِحَن بغير ما جزع ولا انخذال . »

فنظرتُ إلى السيد « ديك » فوجدته ساهماً حيناً وباسماً حيناً آخر ، كمن لا يدرى بمدى الكارثة التى أحاقت بعمّتى ، ثم أفقتُ من ذهولى ورأيتُ من واجبى أن أظهر التجلُّد والشجاعة ، وأن أرطّب خاطر عمّتى وأهوّن عليها وطأة الفاجعة .



لم يغمُضْ لى جَفْن فى تلك اللّيلة اللّيْلاء، وأنا مؤرَّقٌ ساهد، حتى إذا طلع الفجر ارتديتُ ملابسى فى خفّة ورشاقة ، وتسلَّلت من المنزل، وشرعت أطوف بالشوارع وأذْرَعُها شارعاً شارعاً، وذهنى هائمٌ فى مَهامِه التفكير إلى أن حان موعدُ الذَّهاب إلى العمل ، فتوجّهت إلى المكتب واستأذنت الأستاذ « سپنلو » فى الدخول عليه لأفاتحه فى أمرٍ مهمٍّ ، وكنتُ قد قرَّرتُ أن أطلعه على الكارثة التى حلَّت بعمَّتى وأن أطلب إليه فسخ عقد العمل المبرم بينى وبينه، على أملِ استرجاع المبلغ الذى نقدَتْه إياه عمتى وقدره ألف جنيه .

دخلت عليه فحيّيْتُه وبادرته قائلاً :

— « يعزُّ علىّ يا سيّدى أن أنهى إليك أنى تلقيت من عمّتى أنباء سيئة . » فقال غير حافل :

— « أرجو أن لا تكون قد أصيبت بداء الفالج ! » فقلت :

— « لم تُصَبْ يا سيّدى بداء ولا علّة، وإنما أصيبت بخسارة فادحة فى مالها ، فأصبحتْ لا تكاد تمتلك شيئاً . » فصاح الأستاذ مدهوشاً :

— « إنك تدهشنى يا " داڤيد " ! » فقلت :

— « إن ما أقوله هو الحقيقة بعينها . . . ولهذا جئتُ أسألك يا سيّدى أن تتفضَّل علىّ فى محنتنا هذه بفَسْخ العقد المبرم بيننا عن مدّة التمرُّن فى مكتبك ، واسترجاع المبلغ المدفوع ولو مخفوضاً منه بعض الشىء، فعمَّتى

أحقُّ الآن منى بهذا المبلغ ، والله يعلم كم يكلّفنى هذا الطلب ، فمستقبلى كله معقودٌ عليه . »

واجهت الأستاذ بهذا الكلام وأنا أعلم أن تنفيذ مثل ذلك الطلب سيحرمنى المضىّ فى طريق المحاماة ، بل سيرمينى بعيداً عن « دورا » ويقفل بيننا باب اللقاء . ففكّر الأستاذ « سپنلو » قليلاً ثم قال :

— « لو كنتُ وحدي المتصرف فى الأمر لأجبتك فى الحال إلى مطالبك ، ولكن هناك شريكى الأستاذ " جوركينس " ولا إخاله يقبلُ مثل هذا الطلب . »

فذهبتُ إلى الأستاذ « جوركينس » وعرضتُ عليه أمرى ، فرفض كلّ الرفض ، وما كنت لأتوقّع منه غير ذلك ، فمهمّة هذا الشريك ، على ما فهمته فيما بعد ، هى أن يرفض كلّ ما يحيله عليه شريكه من مطالب لا يريد تلبيتها .

وخرجتُ من المكتب فى همٍّ مُقْعِدٍ مُقيم ، فقابلت فى طريقى «أنييس» فأخبرتنى أنها علمت بمجىء عمّتى إلى « لندن » فهى ذاهبة لتحيّتها ، فسرنا معاً إلى المنزل ، وفهمت منها فى أثناء الطريق أن عمّتى بعثت إليها برسالة قصيرة تنبئها فيها أنها أصيبت بمكروه ، وأنها راحلة إلى «لندن». دخلنا المنزل فألفيتُ عمّتى وحدها ، فحيّيناها وجلسنا إلى جوارها ، فأخبرتُها بما سعيتُ من أجله فابتسمت وقالت :

— « إنى فخورةٌ بك يا " داڤيد " ولكننى كنت أوثر أن لا تحاول تلك المحاولة حتى لا أكون عقبةً كأداء فى طريق مستقبلك . . . والآن استمع لى يا " داڤيد ".واستمعى لى يا عزيزتى " أنييس " أخبركما بأسباب الكارثة التى منيتُ بها . . »

وشرعتْ عمّتى تقصّ علينا قصّتها وتقول :

— « كنتُ أستغلّ ثروتى فى أول الأمر فيما أملك من مزارع ، وكنتُ قد عهدت فى إدارتها واستغلالها إلى وكيلى أبى " أنييس " فاقترح علىّ يوماً أن أبيع كل ما أملك من مزارع ، وأستثمر مالى فى التسليف على الرهون ، فجنيتُ من ذلك رِبْحاً لابأسَ به ، ثم فُكَّت تلك الرهون وأصبح المال متوافِراً فى يدى ولا أدرى كيف أستثمره ، فاشتريتُ به كله دون استشارة وكيلى عدداً ضخماً من أسهم شركة جديدة من شركات مناجم الفحم ، وعلّلت نفسى بالربح الجزيل وفْقَ مامَنَّتْنا به الإعلانات الضخمة التى نشرت عن هذه الشركة الجديدة ، وكنوز الأرض التى سوف تستغلها ، فاتضح لى بعد قليل أن الأرضين التى اشترتها الشركة ، لا أثر فيها للفحم ولا لغُباره ، فأفلست الشركة وانهارت الآمال ، وعمّت الكوارث بين المسهمين ، وذَهَبَ المالُ ضَياعاً ... هذه هى قصّتى وإنها لقصّة مفجعة ، ومن الخير أن نطويها فلا نعود إلى الحديث عنها . . . »

ورأيت الفتاة « أنييس » شديدة الإصغاء والانتباه لكلام عمّتى ،

بلَ رأيتها في بعض اللحظات تضطرب اضطراباً خفيفاً ، ويُمْتَقَع لون وجهها ، غير أنها عادت إلى سكونها وصفاء وجهها قبل أن تفرَغ عمّتى من روايتها ، وأغلب الظنّ أنها خشيتْ أن يكون والدها سببَ نكبة عمّتى ، لأنه وكيل أعمالها ومدير ثروتها . فلم أتمالك بعد سَماعى تلك الرواية الأليمة إلا أن أقول :

— « ولكن يا عمّتى علينا أن ندبّر أمر معاشنا . » فقالت :

— « حَسْبُنا المورد الذى يأتينا من إيجار منزلى فى الريف ، فقد يغلّ علينا مئة جنيه فى العام . » فقلت :

— « أبعد عزّك الباذِخ يا عمّتى تكتفين بمئة جنيه فى العام ؟ حبّذا لو . . . » فقاطعتنى مغضبة وقالت :

— « حبّذا لو ماذا ؟ إيّاك أن تفكّر فى الانخراط فى سلك البحرية أو الجندية أو الالتحاق ببعض الأعمال التّافهة . . . لقد أردتَ أن تكون محامياً ويجب أن تصبح محامياً . » فاشتركت « أنييس » فى الحديث وقالت :

— « أعندكَ بعض أوقات الفَراغ يا " داڤيد" ؟ » فقلت :

— « عندى كثيرٌ من أوقات الفَراغ ، فالعمل فى المكتب لا يستغرق وقتى كله . » فقالت « أنييس » :

— « ألكَ ميلٌ إلى الأعمال الكتابية أم تأنف منها ؟ » فقلت :

— « لا آنف من أىّ عمل شريف كان ! » فقالت « أنييس » :

— « لعلّك تذكر مدرساً قديماً فى مدرستك هو الأستاذ " سترونج "؟»
— « أذكره جيّداً وأذكر أنه كان منهمكاً فى إعداد معجم فى اللغة اللاتينية . »

— « لقد هجر التدريس وجاء يقيم " بلندن " ليتفرّغ لمعجمه ، وقد طلب من والدى أن يبحث له عن شاب يعاونه فى الأعمال الكتابية ، وتكفيه من تلك المعاونة ساعتان فى الصباح المبكر وساعتان فى المساء من كل يوم ، وأعتقد أنه سوف يُسَرُّ غاية السرور إذا كان ذلك الشاب المعاون أحد تلاميذه القدماء . . . وهكذا يعود عليك ذلك العمل ببعض المال » . فصفّقتُ طرباً وأقبلتُ على « أنييس » أشكرها وأقول لها جذلانَ فَرِحاً :

— « ألم أقل لك يا " أنييس " إنك مَلَكى الحارس ؟ ! . . . »

وقبل أن تَنْبِس عمّتى ببِنْت شَفَة ، قُرِع الباب ودخل منه والد «أنييس» يصحبه الشاب « هيب » وكانا قد قدما لزيارة عمّتى وتحيّتها ، بعد إذ عرفنا أنها فى « لندن » .

وبدا لى والد « أنييس » رجلاً قد بدأت الشيخوخة تدبُّ فى أضلاعه ، وتفقده ما عرفته فيه من صَلابة الرأى وصَواب الحكم ، فى حين بدا لى « هيب » وهو واقفٌ إلى جانبه أنه عصاه التى يتّكئ عليها ، والعينان اللتان يرى بهما ، والذهن الذى يصرّف الأمور بوَحْيه ، فتذكّرت كلام

« أنييس » عن هذا الشيطان الذى استولى على إرادة أبيها بَلْهَ التصرُّف فى ثروته .

وردّت عمّتى التحية بأحسن منها ، وقالت تخاطب والد « أنييس » :

ـ « لقد تدهورتْ بى الحال يا سيدى ! » فقال والد « أنييس » :

ـ « يشقُّ علىّ يا سيّدتى أن أعرفَ هول النكبة التى أصابتك ، فثِقى أنى أشاطرك الأسى على ما فقدت . »

وسبق « هيب » عمّتى إلى الكلام فقال وهو يحدجنى بنظراته :

ـ « ليس المالُ هو كل شىء فى الحياة يا سيّدتى ، فالمرء بمواهبه وصفاته لا بماله . »

وأدركتُ أنا من هذا التعريض مبلغ ما فيه من صَلَف ، وكأنه أراد أن يقول لى إن مواهبه وصفاته هى التى تجعله أهلاً لأن يطلب يد «أنييس» ، غير أن عمّتى لم يعجبها هذا الكلام فقالت له بلهجة جافّة صارمة :

ـ « ومن ذا الذى زَعَمَ منّا أن المال هو كل شىء فى الحياة ؟ إن الله قد قسم المواهب بين عِباده فلا تظنن أنه سبحانه وتعالى قد خصَّك منها بما لم يخص به غيرك . » فقال « هيب » وقد كظم غيظه :

ـ « عفواً يا سيّدتى ما قصدتُ إلى إساءتك ولا إلى إثارتك ، وإنما قصدتُ مواساتك . » فقالت له بلهجتها الجافّة نفسها :

ـ « شكراً لك . »

ونهض والد « أنيبيس » بعد قليل ونهض معه « هيب » يريدان الانصراف فاستأذنت « أنيبيس » والدها في البقاء فترة قصيرة أخرى مع الآنسة « تروتوود » والسيّد « داڤيد » فسمح لها ولم يستطع « هيب » أن يوعز إلى والدها بغير ما رغبت فيه الفتاة ، فخرج معه يتعثّر بأذيال الخيبة .

وقامت عمّتي إلى بعض شأنها ومشيتُ أنا و « أنيبيس » إلى النافذة نسرّح النظر معاً في الأفق البعيد ونحن ساكتان ، والتفتُّ إليها بعد حين فرأيتُ عينيها مغرورقتين بالدموع ، فكفكفتهما ثم أخذتْ تحدّثني عن « دورا » وتسهب في الثناء على جمالها وكمالها ، وتلقى على تلك الفاتنة التي سحرتني أضواءً من صَفاء نفسها وطهر سَريرتها .





٧

لا أكذبُ اللهَ إن نكبة عمّتى قد هدّتْ ركنى وقلبتْ أحلامى رأساً على عقب ، غير أننى آليتُ على نفسى أن لا أظهرَ لعمّتى فى مظهر الجاحد العاقّ ، ففضْلُها السابق علىّ يقتضينى أن أعملَ آناءَ الليل وأطرافَ النهار ، فى غيرما مللٍ ولاسأم ، لأثبت لها أنى الفتى المقدام الذى لايخيفه العمل الشاقّ . كان علىّ أن أحملَ فأس الحطّاب ، وأشقّ لى طريقاً فى غابة المصاعب التى تكتنفنى أشجارها من كل جانب ، وتسدّ علىّ السُّبل .

كنتُ على مثل هذا العزم عندما سرتُ فى أصيل اليوم التالى إلى

منزل الأستاذ « سترونج » ولمحتُ فى أثناء السَّير بيتاً صغيراً للإيجار ، تحيط به حديقة منمنمة ، فذكرتُ « دورا » وتمنّيت على الله أن يجمعنى بفاتنتى « دورا » ولو فى مثل هذا المنزل الصغير ، فهناءةُ الزوجين فى الحياة مبْعَثُها القلب لا القصورُ الممرَّدة ولا فاخرُ الرِّياش، ثم صدمتنى الحقيقة الرّاهنة، فتابعت مسيرى إلى منزل الأستاذ « سترونج » فاستقبلنى أحسن استقبال، ورحّب بى خير ترحيب ، وسرّه أن يرانى فتى يافعاً بعد إذ عرفنى طفلاً صغيراً .

وبعد هذه المقدّمة من الترحيب والتأهيل التفتَ إلىّ جادًّا وقال :

ــ « إن كلمتك العاجلة التى بعثتَ إلىّ بها أمس ، وذكرتَ لى فيها أنك تودّ معاونتى فى أعمالى ، قد أدخلتْ على قلبى سروراً لا يوصف ، فما زلتُ أذكر رضىّ أخلاقك ، وأدبك الجمّ ، ولكن هناك أمراً يشغل بالى يا عزيزى " داڤيد " ، أفليس حراماً أن تشغل ربيع حياتك بعمل لا يدرُّ عليك إلا مئة جنيه فى العام ؟ » فقلت له :

ــ « إن هذا المبلغ يضاعف موردنا يا سيّدى الأستاذ . »

ثم رويتُ له نبأ النكبة التى أطاحت بعمّتى ، وكأن ضميره لم يسترح إلا عندما علم أنى اخترت المحاماة لى مهنة ، وأن العمل الذى سأقوم به عنده إنما هو عمل ثانوى ليس إلا . . . فضلاً عن أنه عملٌ علمىّ يأسرنى ويستهوينى ، فارتاح الأستاذ لبيّانى ، واتّفقنا على أن أعمل عنده خمسة

أيام فى الأسبوع ، وأستريح فى يومى السبت والأحد ، وأن يكون العمل مقصوراً على ساعتين فى الصباح من السادسة إلى الثامنة وساعتين فى المساء من الثامنة إلى العاشرة . وقررنا بدء العمل فى صباح غدٍ .

ومنذ صباح اليوم التالى ، أخذتُ أختلفُ إلى منزل الأستاذ «سترونج» فى المواعيد المضروبة ، وكنتُ سعيداً بقضاء عدّة ساعات فى اليوم بعمل غير عملى الأصيل ، فكبرتُ فى عين نفسى ، وتخيّلتُنى كبرتُ أيضاً فى عين « دورا » فقد كان خيالها لا يفارقنى فى غدوّى ورَواحى ، كأنه يطلب منى المزيد من الجهد فى سبيل الفوز بها شريكة لحياتى .

وتقاضتنى حالى الرّاهنة أن أقتصد فى النفقات ، فأضربتُ عن شراء الأغذية الفاخرة ، وعن استعمال الصابون المطيّب والماء المعطّر ، وبعتُ بعض ملابسى الفخمة ولو بخسارة ، فما وجدتها تتّفق وحياة التقشّف التى أحياها .

وكنتُ مع كل هذا أتوقُ إلى شغل بعض ساعات أخرى من فَراغى بعملٍ جديد ، فذهبت يوماً أزور رفيق الدراسة الفتى « جاك » فسألته أن يدلّنى على السبيل الذى أستطيع به أن أنشرَ فى الصُّحف مداولاتِ البرلمان ، فثبّطَ عزيمتى وقال لى لابُدّ لذلك من معرفة الاختزال ، ويصعب على المرء أن يُلِمّ بهذا العلم قبل مضىّ سنتين أو ثلاث سنوات ، وصرفنى عن هذه الغاية . أما أنا فما رأيتُ فى هذه العقبة إلا شجراتٍ جديدة من

غابة الحياة ، يجب أن أحطمها بفأس الجهد والعمل ، لأصل بعدها إلى « دورا » فشكرت صديقي وودّعته وقد صمَّمتُ في قرارة نفسي أن أبدأ بتعلم الاختزال على الفور ، فمضيت إلى بعض المكتبات ، واشتريتُ كتاباً في هذا الفن ، وأخذت في كل ساعة من ساعات فراغي ألتهمُ أصوله وقواعده ، حتى بدأت ألمّ به ، فأخذت أتمرّن على تطبيقه في ساحات المحاكم ، فأختزل المرافعات وأعود إلى المكتب لأكتبها ثانية باللغة الفصحى المعروفة ، ولكنها كانت أقرب إلى اللغة الصينية منها إلى اللغة الإنجليزية ، فعرفت أيّ جهد يتطلب مني تعلم فن الاختزال على غير أستاذ .

وفي إبَّان هذا الجهد والجهاد ، تلقيت رسالة من السيّد « مكوبر » يخبرني فيها أن الحظّ قد بدأ يبتسم له ، وأنه كان على يقين من أن الحظ سوف يبتسم له يوماً ، وينبئني أنه وأسرته سيغادران العاصمة أو بابل الحديثة كما سمّاها ، وسيقيمان في قرية نائية من قرى جزيرتنا السعيدة ، وسينهض هناك بعمل يتدفق ومواهبه ويدرّ عليه أخلاف الرزق ، ويطلب إليّ في ختام تلك الرسالة أن أسعده بزورة نتبادل فيها تحية الوداع عشيّة يوم الرحيل .

وفي الموعد الذي ضربه لي كنت أنا ورفيق الدراسة « جاك » في منزل السيّد « مكوبر » نحيّيه ونحيّي زوجته وأبناءه ، ونتمنّى لهم التوفيق والهناءة في مستقرّهم الجديد . وبعد أحاديثَ متشعّبة قالت الزوجة :

ـ «كنتُ على يقين من أن القدر سيبسم يوماً لزوجي ويقدّر مواهبه حقّ قدرها .. » وعقّب السيّد « مكوبر » على كلامها فقال في مرحه المعتاد ولهجته الباسمة التي لا تفارقه :

ـ « إن القفّاز الذي رميته في وجه المجتمع ، قد تلقّاه صديقنا "هيب" هذا الرجل الكريم النفس ، الثّاقب الذهن ، الذي يقدّر قيم الرجال فتعهد إليّ أن أكون وكيله في تلك القرية التي سنشدّ إليها الرحال غداً ... صحيح أنه لم يجعل لي راتباً ضخماً ، ولكنه وفّى عنّي جميع الديون ، وأنقذني ممّا كنت فيه من ارتباك ماليّ ، ولسوف أرهن له ذكائي ونشاطي وأجعلهما في خدمته . »

فكرّرنا أنا وصديقي « جاك » الدّعاء له ولأسرته بتحقيق أقصى الأماني ، وانصرفنا وفي نفسي أكثر من سؤال عن هذا القدر الذي جمع « هيب » إلى « مكوبر » .

واستمرّت حياتي الجديدة على النحو الذي ذكرت ، وكان من حسن الحظ أن عمّتي كانت قد استأجرت المنزل الذي أقطن فيه لمدة سنة ، ودفعت أجرة السكن سلفاً ، ولم يمض من تلك المدة إلا أشهر قليلة ، ولم تشأ عمّتي أن تعتمد على مورد السيّد « ديك » ، فقد عزّ ويعزّ عليها أن تكون مدينةً لأحد . ولمّا كان منزلي لا يتّسع لكل هؤلاء الهابطين عليه ، فقد استأجر السيّد « ديك » غداة وصوله إلى « لندن » منزلاً بالقرب

من منزلى ، يقيم فيه ليلاً ، وينضم إلينا نهاراً .

وجاء اليوم الذى رأت فيه « بيجوتى » أن تعود إلى قريتها ، فأوصلتها إلى مكتب السفر ، وانتظرتُ حتى أخذتْ مكانها من المركبة العامّة ، فقالت لى والدّموع تتلألأ فى عينيها :

— « الآن يا عزيزى "داڤيد" أودّعك وأستودعك الله ، وأرجو أن تعلم أنك إذا احتجتَ إلى بعض المال فى أثناء تمرّنك على المحاماة فأحق من يقرضك إياه هى خادمتك العجوز "بيجوتى". » ثم همست فى أذنى قائلة :

— « ويوم تتزوج الآنسة "دورا" فأبلغنى حتى أحضر وأرتب لك منزل عرسك . . . هذا إذا سمحت لى بذلك . »

أىّ حُلْم هذا الذى تحدّثنى عنه « بيجوتى » ؟ إنه الحلم الذى تلاشى واضمحلّ فى يقظة النكبة . لقد ارتبط قلبى وقلب « دورا » منذ اللحظة الأولى برباط الحبّ ، وتعاهدنا بعد ذلك على الزواج ، وقرّرنا أن ننتظر الفرصة السانحة لنرفع الأمر إلى أبيها ونظفر برضاه ، فالتقاليد الإنجليزية تحتّم الحصول على رضى الوالد وموافقته . كان هذا قبل أن تصاب عمتى بكارثتها ، وكنت قد تريثتُ فى إبلاغ « دورا » بنبأ الكارثة متعلّلاً بما قد تفاجئنى به الأيام من رأى موفق ، ولكن عبثاً تريّثتُ وانتظرت ، فحالى لا تسمح لى بالزواج ، ووالد « دورا » لن يرضى أن تزف ابنته إلى فقير مُدْقِع .

كان اليوم يوم سبْت ، وكنت سألتقى « دورا » فى السّهرة عند بعض الأصدقاء ، فرأيت من واجبى أن أطلعها على حالى وأن أحلّها من عهدها .

والتقينا فى مساء ذلك اليوم ، وانتحيت بها ناحية ، وسألتها هل توافق على أن تتزوّج شحّاذاً ؟ وتطلعت إلىّ بعينيها الحلوتين مدهوشة مذعورة وعلمتُ أنى لم أكن كَيِّساً فى إبلاغها النبأ على تلك الصورة ، فالشحّاذ فى ذهن العذارى البريئات من مثل « دورا » لا يتمثّل لهن إلا رجلاً مجعّد الوجه ، يرتدى الأسمال ، ويمشى على عكّاز ، فرددتُ على دهشتها وذُعرها وأنا أقول فى جدّ وأسف :

ـــ « يا عزيزتى " دورا " إنى رجلٌ هدّ الخرابُ رُكنه ! »

فدمعت عيناها وقالت وهى تضطرب :

ـــ « لا تكن قاسى القلب يا " داڤيد " ! » فقلت :

ـــ « عزيزتى " دورا " إنها الحقيقة بعينها ... وإن الواجب يقتضينى فسْخَ عهد الخطبة بيننا . »

ثم رويت لها القصّة بحذافيرها ، فلم تشأ أن تسمع ، ولا أن تفكّر ، ولا أن تتدبّر الأمر وتقرنى على مسلكى ، فاكتفت بأن تردّد على مسمعى :

ـــ « أنت قاسى القلب يا "داڤيد" ! أنت قاسى القلب يا "داڤيد" ! »

وعدتُ بعد تلك السهرة مشتّتَ الأفكار حزينَ الفؤاد ، فاستيقظت فى الساعة الخامسة صباحاً ، كعادتى فى نظام حياتى الجديدة ، ومضيتُ

إلى عملى عند الأستاذ « سترونج » ثم فى مكتب الأستاذ « سپنلو » .

ومرّ على نحوٌ من أربعة أشهر فى حياتى الرتيبة الموزعة بين العمل ودراسة الاختزال ، حتى رأيتنى قد ألممت بهذا الفن الإلمام الكافى ، فشرعت أذهب إلى مجلس النواب والشيوخ ، وألتقط خطب الأعضاء وأختزلها طبقاً للقواعد التى تعلمتها ، ثم أقارنها بما ينشر منها فى الصحف ، فإذا اختزالى صحيح ، وإذا فؤادى يهتزُّ طرباً من هذا النجاح .

وشاهدتُ فى أحد الأيام الأستاذ « سپنلو » فى رواق من أروقة مجلس النواب ، وقد استند إلى الحائط محتقنَ الوجه ، وهو يشير بيده إشارات غريبة ، فأدركت أنه مصابٌ بنوبة من نوبات الصداع التى تعاوده حيناً بعد حين .

ولشدّ ما عجبتُ فى صباح اليوم التالى ، عندما ذهبتُ إلى عملى فى مكتب الأستاذ « سپنلو » أن أرى الكتبة والمحامين واجمين ساهمين ، فاقترب منّى أحدهم وقال :

— « يا للمصيبة الكبرى يا سيّد " كوبرفيلد " ! » فصحتُ فيه مستفهماً وقلت :

— « ماذا حَدَثَ ؟ أيّة مصيبة كبرى تتحدّث عنها ؟ » فقال :

— « الأستاذ " سپنلو " ! » فصعقتُ ذرعاً به وقلت :

— « ما خطبُ الأستاذ " سپنلو " ؟ » فقال :



— « إنه مات ! »

فشعرتُ أن الأرض تغورُ تحت قدميّ ، فاستندت إلى ذراع أحد الزملاء ، فأجلسني على مقعد وفكّ عنّي ربطة العنق ، وأخبرني أن أستاذنا « سپنلو » قد مات فجأة ليلة أمس .

وشُيِّعت جنازةُ الراحل ، وقدمت أصدق العزاء لابنته « دورا » ، وتولّى شريكه الأستاذ « جوركينس » ترتيب أوراق الفقيد الخاصة وتنظيم شؤونه ، فبدا أن المسكين الراحل كان فى فوضى مالية لا مثيل لها ، فما كان يعرف ماذا يكسب ولاماذا ينفق ؟ واتضح أنه أنفق أموالاً ضخمة فى الفوز بعضوية مجلس النواب ، وأنه ليس على شيء كبير من الثراء ، فلو صُفّى موقفه ، ودُفعت الديون التى عليه ، لم يبق للمسكينة « دورا » إلا أقلّ من ألف جنيه .

وتمّت التصفية ، وبيع المنزل الريفى ورياش منزله « بلندن » ، واضطُرّت « دورا » إلى مغادرة العاصمة والسُّكْنى عند عمّة لها عجوز كانت تقطن فى إحدى الضواحى .

وتقهقرت أعمال مكتب الأستاذين « سپنلو وجوركينس » من سيئ إلى أسوأ ، وضاق العمل فيه ، فأسفتُ كل الأسف على مبلغ الألف الجنيه الذى ذهب مع الريح ، دون أن أعوِّضَ عنه بتمرُّنٍ واسع مفيد .

ورأيتُنى ذات يوم أسيرُ فى اتجاه منزل « أنييس » فدخلته ، فخفّت

« أنيبيس » لاستقبالي فرحة مستبشرة فقلت لها :

ــ « كيف حالك يا عزيزتي " أنيبيس " لقد مضى علينا زمن طويل لم نتقابل فيه . » فقالت ضاحكة :

ــ « لقد تقابلنا منذ أقلّ من شهر يا عزيزي " داڤيد " ! » فقلت :

ــ « ربما . ولست أنسى أني تعوّدتُ أن ألجأ إليك في الملمّات ، وأن ألتمس لديك الرأي الثّاقب . » فتبسّمت صامتة فقلت :

ــ « مع أنه لا يعوزني الذكاء ولا صدق الحكم على الأمور ، ولكنني أشعر بالارتياح والرضى ، وبتخفيف أعباء الحياة عن كاهلي عندما أكون في حضرة ملَكي الحارس . » فقالت :

ــ « كلّي آذانٌ مصغية إليك يا عزيزي " داڤيد " . »

فقصَصْت عليها ما كان من أمري وأمر « دورا » لمّا طلبتُ منها فسْخ عهد الخطبة ، ثم أخبرتها بالنكبة التي ألمّت « بدورا » في وفاة والدها وفقْد ثروتها ، وذكرتُ لها أني متردّد حائر في الموقف الذي أقفه منها في هذه الأيام .

فغمرتني « أنيبيس » بنظرة طويلة تخفي وراءها ألف معنى ومعنى وقالت :

ــ « أرى أن تكتب إلى عمتها وتطلب منها أن توجّهك فهي تحلّ اليوم محلّ والدها . »

فأحسستُ أني تخففت من عبء ثقيل كنتَ أرزَحُ تحته ، فودّعتها شاكراً ، وعدت إلى المنزل فرأيت عمّتي والسيّد « ديلك » مستسلمين إلى مناقشة حادّة فتركتهما وشأنهما وجلست أكتب الرسالة التي قرّرت أن أبعث بها إلى عمة « دورا » فلمّا انصرف السيّد « ديلك » إلى بيته ، أطلعت عمّتي على ما جرى من حديث بيني وبين « أنييس » وقرأت عليها الرسالة التي كتبتها فوافقت عليها ، فأودعتها صندوق البريد وبتُّ أترقّبُ وصول الجواب.

وما هو إلاّ يومٌ وبعضُ يوم ، حتى جاءني جواب العمّة تدعوني إليها لمباحثتي فيما تضمّنته الرسالة ، وتضرب لي يوم كذا موعداً لذلك ، وتخيّرني في أن أصطحب معي شخصاً من ثقاتي ، فاقترحتْ عليّ عمّتي في أن أصطحب معي صديقتي « أنييس » فرضيت « أنييس » بذلك وكنا في الموعد المضروب في حضرة « دورا » وعمّتها .

وارتأت عمّة « دورا » أن نترك للزمن تقرير مصيري ومصير « دورا » ، على أنّها سمحتْ لي بتناول الغداء معهما في كل يوم أحد .

وخشيتْ « دورا » في بدء الأمر « أنييس » ولم ترتَحْ إلى لقائها ، ولكنها عندما تبيّنت من حديثها ما تكنّه جوانحها من صَفاء القلب والسّريرة ، مالت إليها وقالت لي وأنا أودّعها :

– « ألا ترى معي يا " داڤيد " أنه لو كان الدهر حباني بصديقة مثل " أنييس " لكنت اليوم أحسنَ فكراً وأثْقَبَ رأياً ! »

فتبسّمت أنا و « أنيبيس » وانصرفنا ، وكنت أتحرّقُ شوقاً إلى الانفراد « بأنيبيس » لأعرف منها رأيها فى « دورا » فأثنت عليها الثناء الذى ما بعده ثناء ، وأطْرَت جمالها وفضائلها وسموّ نفسها ، فازدادت « أنيبيس » سموًّا فى نظرى ، وأكبرت منها هذا الحكم المتجرِّد .

وعدنا إلى « لندن » وأوصلتها إلى منزلها ، وقفلت راجعاً إلى منزلى ، فنغّصَ علىّ حبورى كتابٌ كان فى انتظارى ، وقد بعثت به إلىّ زوجة السيّد «مكوبر» فقرأته مَثْنَى وثُلاثَ دون أن أستشفّ منه الحافز الأصيل لما تشكو منه وتتذمر ، فقد ذكرت لى فى كتابها أن زوجها لم يَعُدْ الإنسان المَرِح المغتبط الذى عرفتُه ، وأنه أصبح عابسَ الوجه ، مقطّب الجبين ، يُخْفِى عنها ما لم يُخْفِه عنها بالأمس من أمر مَعاشه ورزقه وعمله ، ويقتِّر عليها فى نفقات الأسرة ، وأنها تُهْرَع إلىّ طالبةً منّى النصح والتوجيه فى كارثتها هذه .





٨

بلغت اليوم سنَّ الرُّشْد، فعمرى الآن واحد وعشرون ربيعاً ، وقد روّضْتُ هذا الوحش الضارى الذى يسمُّونه الاختزال ، وأصبح موردى منه مورداً جليلاً ، وغدوتُ واحداً من اثنى عشر مختزلاً عهدت إليهم صحيفة من صحف الصباح فى أن يلتقطوا بالاختزال مناقشات البرلمان لنشرها فى الجريدة .

ولقد حاولَ صديقى « جاك » غيرَ مرّة أن يحذو حذوى فما استطاع ، وأقرّ لى بعجزه ، واكتفى بأن يلتقط للجريدة بعض الأخبار ، فيقدّمها إلى من هو أمهر منه فى الصياغة ، فيُلْبسها الأساوب الصحفى الأثير .

غير أن موافاة الجريدة بالأخبار قد درَّ عليه بعض الرّزق ، فالتحق بمكتب أحد المحامين ، ووعده بأن ينقده الرسم المطلوب وقدره مئة جنيه (ويختلف هذا الرسم باختلاف شهرة المحامى) على دفعات متوالية .

لم أكتف بالأعمال التي أزاولها ، فأوحتْ إلىّ عزيمتى وطامحى أن أدخل باب التأليف ، فقرعتُه مرتجفاً خائفاً ، وأرسلت أوّلَ مقال لى إلى بعض المجلات فنشرته ، فتشجّعت وداومت على الكتابة ، فدخل علىّ منها مورد لا بأس به ، وأصبحتْ جملةَ مواردى فى العام ثلاثمائة وخمسين جنيهاً ، وإنه لمبلغ وحقّكم لا يُستهان به .

انتقلنا إلى منزلٍ آخر ، وأقبلتْ « بيجوتى » لتُعْنَى بتنظيفه وترتيبه . إن مهمّة هذه المخلوقة أن تُعْنَى طول العمر بالتنظيف والترتيب . لقد وعدتْ أن تسارع إلى هذا العمل يومَ أتزوّج « دورا » وها هى ذى أحلامى تتحقق ، فترْضَى عمّة « دورا » بزواجنا ، ويحين موعد اليوم العظيم فتُزَفُّ « دورا » إلىّ فى محضر من الأحباب .

عِشْنا معاً هانِئَيْنِ سعيدَيْن ، وإن حفّتْ حياتنا ألفُ مشكلة من مشكلات الخدم والحياة المنزلية . وآثرتْ عمّتى وعمّتها أن لا تشاطرانا السّكَن ، وأن تتركانا وحدنا عصفورين يتغنّيان فى جنّة الحياة ، وينتقلان من غصن إلى غصن ، وكنا نحن الاثنين على جهل تام بمطالب الحياة المنزلية ، فاستبدّ بنا الخدم ، وسرقونا ما شاء لهم الاستبداد والسّرقة ، وكثيراً ما كنتُ

أختلف أنا و « دورا » فى الحكم على مثل هذه الشؤون ، فتغضب وتحنق وتتّهمنى بالجفاء والغلظة ، ثم نعودُ إلى إقرار السلام بيننا وهكذا دواليك ...

أصبتُ شيئاً من النجاح فى محاولاتى الأدبية ، وكان قد مرّ على زواجنا عامٌ واحد ، فرأيت أن أهجر الاختزال ومصائبه ، وأتفرّغ للتأليف ، فأصبحتُ أشْرِك معى « دورا » فى المطالعة فترضى بذلك على سأم ، وأقرأ لها صفحات كثيرة من « شكسبير » محاولاً بذلك أن أجنّبها الضجر من حياة العزلة التى تحياها حين أكون غائباً عن المنزل .

على أنّنى لحظتُ غير مرّة أن شيئاً ما ينخر فؤاد « دورا » ، أهُوَ حزنُها على والدها؟ أم أسَفُها على النعيم الذى كانت ترتَعُ فى بُحبوحته ؟ فبدّلَتْها به الأقدار مسكناً متواضعاً ، وفرضت عليها القيام بتدبير شؤونه ، وما لمثل هذا خلقتْ ولا عليه درّجتْ ونشأتْ ؟

ولم تنقطع عمّتى قطُّ عن زيارتنا ومعاونة « دورا » فى كَبْحِ جِماح الخدم والضّرب على أيديهم السّارقة ، وكانت لاتسمّيها إلا « الوردةالصغيرة» فكان يحلو على سَمْعى أن أسمع عمّتى تناديها وتخاطبها بمثل : تعالى أيتها الوردة الصغيرة ، خذى هذا الكتاب يا وردتى الصغيرة ، إن طعامك اليوم لذيذٌ شهىّ يا وردتى الصغيرة ، فلما تمكّن الدّاء من « دورا » لزمتنى الوساوس ، وخشيتُ أن يكون لتلك التسمية فألُها السيىءُ ، فلا تعيش زوجتى

وحبيبتي أطول من عمر الورد .

وكثيراً ما كنت أحمل « دورا » بين ذراعيَّ ، وأنزل بها إلى الحديقة لتستنشق النسيم الرَّطْب ، فهالني أن أحسَّ جسمها يخفّ وزنه يوماً بعد يوم ، فغلبتني الأحزان على أمري ، وشعرت أني أسير إلى بقعة مجهولة يغطيها الصّقيع ، فكان هذا الشُّعور الكئيب سبباً يملأ قلبي بفواجع الأتراح .

وجاءني البريدُ ذاتَ يوم برسالة من السيّد «مكوبر» لم يَشْكُ فيها ضيقاً ماليًّا بل شكا فيها من راحة الضمير التي فقدها أبدَ العمر ، وكان أسلوب الرسالة نبيلاً ، ولكنه مَشوبٌ بالغموض ، وكان يرجو مني في ختامها أن ألقاه أنا وصديقنا « جاك » في شارع كذا بعد إذ عيَّن لنا اليوم والساعة .

وما كِدْتُ أنتهي من قراءة الرسالة حتى أقبلَ عليَّ « جاك » فبادرته قائلاً :

ـ « لقد تلقَّيْتُ يا عزيزي " جاك " رسالة غريبة من صديقنا " مكوبر " . » فقال :

ـ « وتلقَّيتُ أنا رسالة من زوجته . »

فتبادلنا الرِّسالتين ، فإذا الزوجة تشكو ممَّا سبق أن شكت لي منه في رسالتها السابقة ، ولكنها تذكر في هذه الرسالة أنها كثيراً ما سمعت زوجها

يقول إنه باع نفسه للشيطان . . . وتذكر فى الختام أن زوجها مسافرٌ إلى « لندن » فترجو باسم الصداقة القديمة أن يشترك « جاك » معى فى بذل المعونة لزوجها المعذَّب .

فكتبنا على الفور إلى زوجة السيّد « مكوبر » رسالة وقّعْناها نحن الاثنين ، ووعدناها بالقيام بما ترجو ، وقرّرنا أنا و « جاك » أن نذهب إلى الموعد الذى ضربه لنا السيّد « مكوبر » فوصلنا إليه متقدِّمين ربع ساعة وكان السيد « مكوبر » فى انتظارنا ، فلم يستقبلنا بالمرح الذى عرفناه عليه ، وإنما استقبلنا بوجه عابس قد ارتسم فيه عذابُ القلب ، فتأبَّط بيمناه ذراع « جاك » اليُسْرى وأخذ بيسراه ذراعى اليُمْنى وسار بنا قليلاً وهو يقول :

— « إن فى الطريق إلى القبر دُروباً يتمنَّى المرء أن لا يجتازها أبداً.. »

فقال « جاك » :

— « ما هذه الكآبة التى نراك عليها ياسيّد "مكوبر" ؟ فما عوَّدْتَنا قطُّ فى أشدِّ الأيام بؤساً أن نراك حزيناً عابساً ؟ »

فسكت ولم يجب ، وبعد هنيهة صمت سألته :

— « وكيف حالُ صديقنا "هيب" ؟ »

فاصفرَّ وجهه اصفراراً شديداً وقال :

— « يا عزيزى "كوبرفيلد" لئن عددتَ هذا الرجل صديقك

لأرثيَنّ لحالك ! ولئن عددتَه صديقى لأسخرنّ من هذه الصّداقة ! ومهما تكن الأسماء والألقاب التى يُنْعَتُ بها هذا الرجل فلن تخفى حقيقة حاله، إنه ثعلبٌ ماكر بل إنه شيطان رجيم ... واعذرانى إن أنا لم أتبسَّطْ فى ذمّ هذا الرجل الذى قادنى إلى الهاوية . . »

وأخرج من جيبه منديلاً مَسَحَ به جبينه ووجهه ، وطفق يبكى وينتحب ثم قال :

–« إنى شقىٌّ بائس قد حَكَمَ عليه شعورُه الإنسانى أن يتألَّم ويتعذَّب.. لقد لقيتُ الآنسة "أنييس" قبل أن ألقاكما ، وأثنيت على ذلك المَلَك الطاهر ، بل على ذلك الكوكب السَّاطع فى ديجور الظلام ، فاتركانى أهيمُ على وجهى فى فِجاج الأرض لعلّ الدُّودَ يأكل بدنى فأكفِّر عن ذنوبى قبل أن ألقى وجهَ ربِّى . »

وأشفقتُ من أن يتجمَّع حولنا المارَّة ، ويطول الوقت قبل أن يُفْضِىَ إلينا السيّد « مكوبر » بما يشغل باله ويعذبه ، فاقترحت عليه أن نسير معاً إلى بيت عمّتى ونتمّم الحديث فيه ، وأخبرته أنها سيسرُّها التعرُّف إليه وإضافته تلك الليلة فى منزلها ، فقَبِل وضمَّنا بيتُ عمّتى بعد قليل ، فقدَّمْتُه إليها وإلى السيّد « ديك » فرحَّبا به أجملَ ترحيب ، ثم عاد فأخرج منديله وطفق ينتحب فقلت له :

– « هوِّنْ عليك يا سيّد "مكوبر" وفَرِّج عن نفسك ، وأنْقِذْها

من ذلك السرّ الذى يبرّح بك، واعلم أنك هنا بين نَفَرٍ من الأصدقاء.»

فقال وهو لا يزال ينتحب :

— « إن رأيتمونى على مثل هذه الحال من الضَّعْفِ والخَوَر، فلأنى بين نَفَرٍ من الأصدقاء ... تسألوننى أن أبوحَ بالسرّ الذى يبرّح بنفسى، وكان الأولى أن تسألونى عما لا يبرّح بنفسى . . . إن عذاب نفسى ناشئٌ من القسوة والسَّفالة والتَّزْوير والدّسائس، ومجموع هذا الهَرَم من الرَّذائل يسمَّى " هيب " . »

فدقَّتْ عمّتى يداً بيد ، وارتجفنا جميعاً ، فاستأنف « مكوبر » حديثه وقال :

— « كلا . كلا . فما عدتُ أستطيع أن أغالب نفسى وأصارعها . . . ولا عُدْتُ أقْوَى على الحياة فى ذلك الصراع . . . »

فاقتربتُ منه ومددتُ إليه يدى فابتعد عنى قائلاً :

— « لا . لا يا " كوبرفيلد " ! لا تمسّ يدى . . . حتى يعوِّض على الآنسة " أنييس " وعلى غيرها من الناس الضَّررُ الذى ألحقه بهم " هيب " ذلك الثعلب الماكر . . . احتفظوا جميعكم جيّداً بهذا الذى أقوله : فى مثل هذا اليوم من الأسبوع المقبل . . . وفى ساعة الغداء . . . عليكم جميعاً بدون استثناء ... حتى العمّة الجليلة وهذا السيّد الفاضل ... أن تحضروا إلى منزلى فى القرية التى أقيم فيها . . . فسوف تجدوننى هناك

وزوجتي وستسمعوننا نتغنّى بذكريات الأيام الجميلة الماضية ... وعندئذ أكشفُ القِناع عن " هيب " المجرم الأثيم . . . فما عندى شىء أزيده على ما قلت ، ولا شىء أسمعه . . . إن المجتمع يُثْقِل صدرى ، فسوف أهرب منه وأجرى وراء " هيب " ذلك اللصّ الخائن المجرم ! . . . »

وعلى الأثر انطلاق انطلاقَ السَّهْم إلى الشارع ، وتركنا حيارى مدهوشين مقطّعى الأنفاس . . .

وفى اليوم الذى حدّده لنا « مكوبر » كنا نحن الأربعة فى تلك القرية متوجّهين إلى منزل « مكوبر » وعندما اقتربنا منه اتضح لنا أنه يسكن فى جناح من مَبْنى هو مقرّ شركة « ويكفيلد وهيب » فى حين يسكن السيّد « ويكفيلد » وأسرته فى جناح آخر من المبنى عندما ينزلون بتلك القرية ، كما يسكن فيه أيضاً السيّد « هيب » إبّان إقامته فيها .

وكان « مكوبر » فى مكتبه من الطبقة الأرضية منهمكاً كلّ الانهماك ببعض الأعمال الكتابية ، فلمّا وصلنا إليه صحتُ بأعلى صوتى :

— « كيف حالُك يا سيد " مكوبر " ؟ » فقال :

— « بخير يا عزيزى " كوبرفيلد " . » فسألته :

— « هل الآنسة " أنييس ويكفيلد " فى المنزل ؟ » فقال :

— «نعم إنها فى المنزل تُعْنَى بأبيها المريض ، ولسوف تُسَرُّ كلّ السُّرور برؤيتكم . تفضّلوا بالدّخول . »

ومشى « مكوبر » يتقدمنا إلى داخل المنزل ، ففتح الباب وقال بصوت جَهْوَرِيّ :

— « الآنسة "تروتوود" السيّد "داڤيد كوبرفيلد" السيّد "جاك" السيد " ديلك " . »

ورآنا "هيب" فدهش من زيارتنا المفاجئة ، ولم يقطِّبْ حاجبَيْه فما كان له حاجبان ليقطِّبهما ، ولكنه جعَّدَ جبينه حتّى صغُرَتْ عيناه ، وما هى إلا لحظة قصيرة حتى استعاد سكونه ورَباطةَ جَأشِه فقال :

— « ما أجملَ هذه المفاجأة ! بل ما أجملَ هذا العيد الذى يسرّنى بلقاء جملة من الأصدقاء معاً ! »

ثم التفتَ إلىّ وقال :

— « كيف حالُ السيّدة " دورا " زوجتك ؟ أرجو أن تكون قد تماثلتْ للشِّفاء . . . الله يعلم كم انزعجنا لمرَضها . »

فقلت له متأدِّباً :

— « شكراً لك يا " هيب " على عاطفتك الرقيقة ! » وتوجَّه بالكلام إلى عمّتى فقال وهو يبتسم ابتسامته الصفراء :

— « لقد مضى علىّ زمنٌ طويل لم أَشْرُف بلقائك فيه يا سيدتى ... منذ اليوم الذى كنت فيه أجيراً عند السيّد " ويكفيلد " ناظر المدرسة ووكيل أعمالك . . . كل شىء قد تغيّر ، ولكننى أنا لم أتغيّر . . . »

فقالت عمّتى :

ـ « لو شئتُ أن أكونَ صريحة لقلتُ لك إنك حقّقْتَ كل ما كان يجيشُ فى صدرك أيام الشباب من مطامع . » فقال :

ـ « أشكرك يا آنسة " تروتوود " . » فقال « جاك » :

ـ « أرجو أن لا نكون قد أثقلنا عليك بزيارتنا ومنعناك من العمل . »

فقال « هيب » :

ـ « كلاّ يا عزيزى . . . إن زيارتكم حبيبةٌ إلينا . . . إن العملَ كثيرٌ ضخم ، ولاسيّما منذ مرض السيّد " ويكفيلد " ، على أنّه يسرُّنى ويسرّ معاونى السيّد "مكوبر" أن ننهض به ونَرْعى مصالح السيّد " ويكفيلد " . »

ودخلت « أنييس » فى تلك اللحظة ولم تكن هادئة مطمئنّة كعادتها ، فحيّتْنا وحيّيْناها ، وأشار السيّد « مكوبر » فى هذه الأثناء إلى « جاك » إشارة خاصّة ، فخرجا معاً وعادا بعد قليل ، وضاق « هيب » ذَرْعاً بذلك الخروج وتلك العودة ، ولم يتمكّنْ أن يفهم سرّها فقال يخاطب « مكوبر » :

ـ « لسنا فى حاجة إليك يا سيّد " مكوبر " فيمكنك أن تنصرف إلى عملك . »

فمضى « مكوبر » إلى الباب ووقف عنده لا يتحرك ولا يريم فقال

له « هيب » :

— « ماذا تنتظر ؟ أما سمعتَ أمرى بالانصراف إلى عملك ؟ » فقال « مكوبر » وهو جامدٌ فى موقفه :

— « بَلَى سمعت . » فقال « هيب » غاضباً :

— « ولماذا لا تمتثل لأمرى ؟ » فقال « مكوبر » وقد بدأ مِرْجَلُ السُّخْط يَغْلِى فى صدره :

— « لأنَّنى لا أريد الامتثال لأمرك . »

فاحْتُقِنَ وجه « هيب » ولكنه كظم غيظه وقال وهو يحاول الابتسام:

— « إنك رجلٌ مسكين . . . وجميع الحاضرين يعلمون ذلك . . . وأخشى أن تُحْوِجَنِى إلى طَرْدِك... فاخْرُجْ وسوف ألقاك بعد قليل.»

فانفجر سُخْط « مكوبر » انفجاراً عنيفاً وقال :

— « لو تجسَّدَ الإجرامُ فى هذا العالَم لما تجسَّمَ إلا فى رجلٍ يدعى " هيب " . »

فتراجع « هيب » كمن لذَعَتْه أفعى سامّة ، وأجال طَرْفَه فينا جميعاً وقال يخاطبنا :

— « إنها إذن مؤامرة دَبَّرْتُموها، وضربتم موعداً لتنفيذها فى هذا المكان . . . ياوح لى يا سيِّد "كوبرفيلد" أنك تريد التواطؤ مع أجيرى ولكن حَذارِ ! فأنا أعرفك وأنت تعرفنى ، وكلانا يضمر للآخر الحقد

والبَغْضاء ... إنك تحسدنى على أن ارتفعتُ وأنتَ ما زلتَ عالِقاً بالأرض ، فجئتَ تشترى أجيراً لى هو من حُثالة المجتمع ، كما كنتَ أنتَ فى ماضى أيّامك . . . أجل جئتَ تشتريه ليقذفنى بالتُّهَم والأكاذيب . . . »

والتفت إلى « أنيبيس » ومضى يقول لها :

— « بحقّ حُبِّك لأبيك يا آنسة لا تنضمّى إلى هذه العِصابة ، وإلا ألحقت بأبيك الخراب والدّمار ! »

وتابع حديثه يخاطب « مكوبر » :

— « أقْدِمْ يا "مكوبر" إنى ممسكٌ بك بين مخالبى . . . وسوف أحطّمك تحطيماً ، فابتعد فما زالت لك هناك فرصة للنّجاة ! » فقال « جاك » فى هدوء وسكون :

— « هلاّ خفّفْتَ من غلوائك يا سيّد" هيب " ؟ ! » فقال « هيب » متغيظاً مُحْنَقاً :

— « ومن أنتَ أيُّها الرجل لتفرض علىّ نصحك البغيض ؟ » فقال « جاك » بلهجة خطيرة هادئة :

— « أنا صديق "السيّد ويكْفيلد" ووكيله الشرعىّ ، وفى جيبى توكيلٌ منه يُبيحُ لى أن أتصرّف باسمه وبالنيابة عنه فى كل ما أرى من شؤون . »

وكان « مكوبر » قد اتّفق مع « أنيبيس » على أن تستكتب أباها ذلك التوكيل سِرّاً ، فلمّا خرج هو و « جاك » من الغرفة دفع به إليه

وأفهمه ما يريد إفهامه . فقال « هيب » وقد جحظت عيناه وازداد امْتِقاع لونه :

— « إذن لقد فَقَدَ ذلك الحمارُ الأبله صَوابه ، فانتزعتم منه ذلك التوكيل تزويراً وتدليساً . » فقال « جاك » :

— « أعرِفُ أن بعضهم قد انتزع منه أشياءَ تزويراً وتدليساً ، وأنت أعْرَفُ منَّا بذلك يا سيّد " هيب " فإن شئتَ كَلَّفْنا السيّد " مكوبر " أن يوضِّح لنا المسألة . »

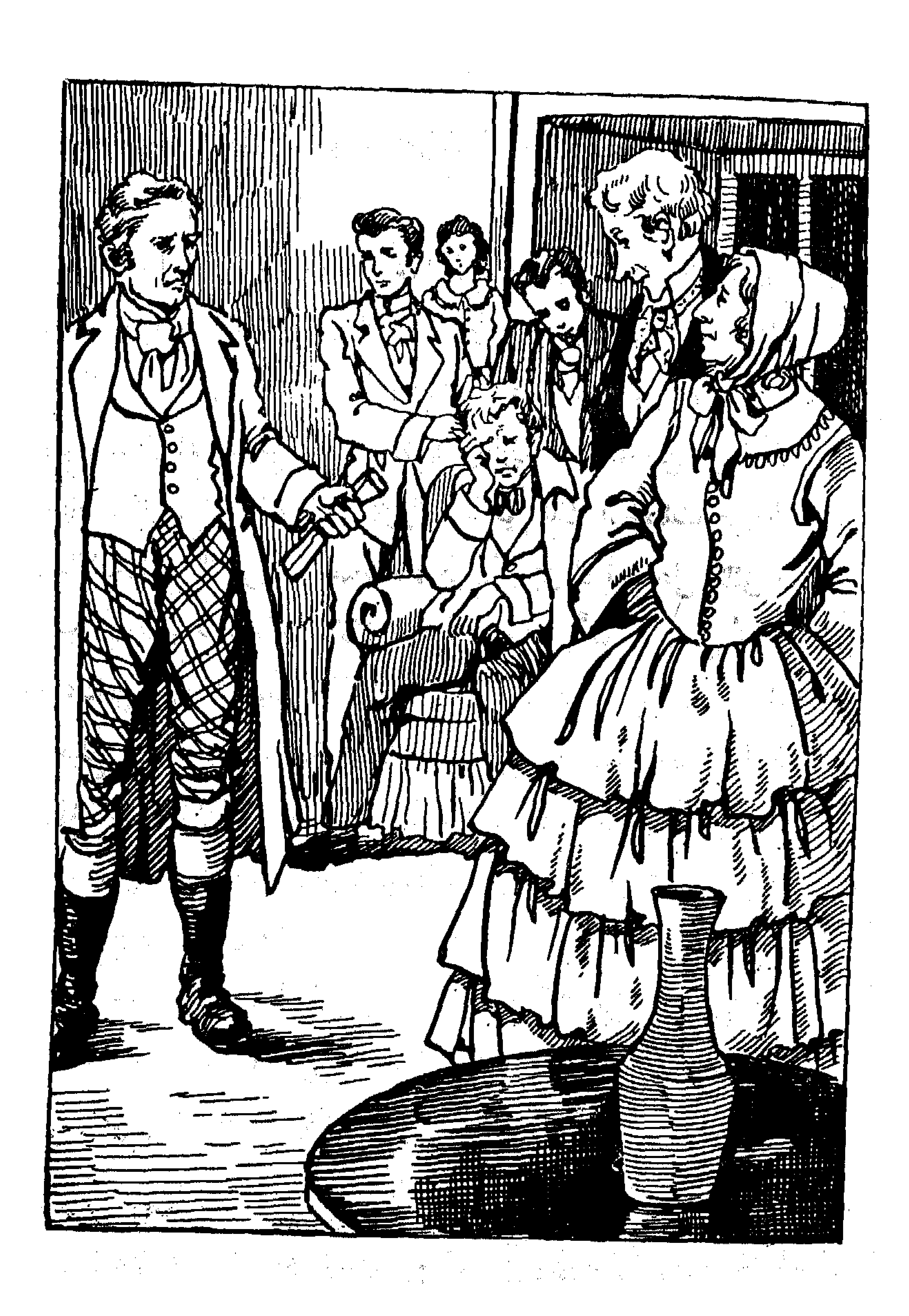
فأخرج « مكوبر » على الأثر من جيبه مجموعة أوراق مطويّة ، فنشرها وأخذ يقرأها بصوت جَهْوَرِيّ . وبعد أن استهلّها بوصف الضائقة المالية التى رمته بين براثن « هيب » قرأ ما يلى :

« دفعتنى يوماً الفاقةُ والجنون إلى مكتب الشركة المعروفة باسم " ويكفيلد وهيب " ولم يكن يديرها فى الواقع إلا " هيب " ، و " هيب " وحده هو محرّك تلك الآلة ، و " هيب " وحده هو اللص المزوِّر . »

وتبدّل وجه « هيب » من الصُّفْرة إلى الزُّرْقة ، فهجم يريد اختطافَ مجموعة الأوراق وتمزيقها ، فكال له " مكوبر " ضربةً أليمة من مِسْطَرة كانت فى يده ، فرجع عنه مُرْغياً مُزْبداً مهدِّداً ، فقال له « مكوبر » :

— « حَذارِ من الهجوم مرّةً أخرى وإلاّ دققتُ عُنُقك . »

فرجع عنه خصمه ، وارتمى إلى أحد المقاعد مقفلَ العينين ، وعاد



« مكوبر » إلى القراءة . وبعد فقرات كثيرة تفيض بالشُّعور الحيّ وبلاغة الأسلوب قرأ ما يلي :

« وإليكم التُّهَم التي أوجِّهها إلى " هيب ". »ومضى « مكوبر »يقرأ :

« ولمّا ضعفت قُوَى السيّد " و " العقلية، لأسباب لا داعي إلى ذكرها ، اجتهد " هيب " في إشاعة التعقيد والفوضى في كلّ أعماله ، وكلّما ازداد السيّد " و " ضَعْفاً وحاول أن يبتعد عن مزاولة الأعمال، ازداد " هيب " إيعازاً له بمزاولتها ، ففي تلك اللحظات من الضَّعْف والانحطاط الفكرى ، اضطرّه « هيب » إلى التوقيع على وثائق هي على جانب عظيم من الخَطَر والأثر ،موهماً إيّاه أنه إنّما يوقّع على أوراق تتعلّق بمسائل تافهة ، ووصل به الأمر إلى أن يستصدر منه ترخيصاً في استعمال مبلغ كبير من المال كان وديعةً لديه ، زاعماً له كذباً واحتيالاً أنه سيدفعه إلى مصلحة المكوس والضرائب ، ثم انتهى به الأمر إلى أن يسيء معاملة المريض، ويُخْضِعه لأهوائه وسلطانه، ويفرض عليه تنفيذ ما يرغب . »
فصاح « هيب » قائلاً :

– « عليك يا " كوبرفيلد " أن تقيمَ الدّليل على كل هذا . . . ولكن صبراً فسوف نلتقي . » فقال « مكوبر » وقد قطع القراءة :

– « يا سيّد " جاك " هل لك أن تسأل " هيب " عن دفترٍ لقيه في مكتب السيّد " ويكفيلد " واستولى عليه ؟ وهل لك أن تسأله عن دفتر

أحرِق فى هذا المنزل؟ فإن أجاب نعم وسألك عن رَماد ذلك الدفتر فأحِله إلى المدعو " مكوبر " يعلم منه أشياء لا تسرّه . » وعاد « مكوبر » إلى القراءة :

« وَعَمَد " هيب " على ما ظننتُ وعلمت إلى التزوير غير مرّة فى عدد من الأوراق والسجلات والوثائق ، محاكياً توقيع السيّد " و " ولا سيّما فى مسألة أستطيع أن أقدّم الدّليلَ عليها : مرض السيّد " و " وكان من المتوقّع لو مات المريض أن يضمحلّ نفوذ " هيب " على أسرته ، فسلب منه توقيعاً على وثيقة يعترف فيها بمبلغ هائل من المال اقترضه من " هيب " لينقذ به نفسه من العار ، فى حين أن ذلك كله كذب وافتراء ، ومن العجب أن تلك الوثيقة مذيّلة بتوقيع شاهد هو " مكوبر " . هذا وتحت يدى جملة توقيعات زوَّرها "هيب" فى الدفتر الذى أحرِق ، فبعضها مطموسٌ ، وبعضها ظاهر لم تأتِ عليه النار . . .

وتحت يدى كذلك جميع الدفاتر والسجلات الخاصة بهذه الشركة ، فقد أخذتها من الصُّندوق الحديدى وأودعتها مكاناً أميناً إلى أن يطلب منى تقديمها إلى النّيابة والقضاء .

إنى فى حياتى كلها لم أكتب مثلَ هذا التقرير ، فهذا الذى قرأته صورة منه ، أما الأصل فقد دفعت به إلى السيد " جاك " . »

وما كان أشدّ دهشتى عندما رأيت عمّتى تهجم على "هيب" وتُمْسِك

بخناقه وتقول له :

— « أعِدْ إلىّ ثروتى أيُّها اللص ... عذراً يا "أنييس" فقد كنتُ سكَتُّ على مَضَض، عِلْماً بأن أباك هو المتصرِّف فى مالى، وأن الحظّ خانه فى ذلك التصرُّف ، ولقد كتمتُ الأمر حتى عن " داڤيد " وزعمت أنى أنا صاحبة الرأى فى شراء أسهم تلك الشركة المفلسة ، أمّا وهذا اللصّ هو السارق ، فأريد استعادة ثروتى . »

ونظر إلىّ «هيب» نظرةً يتطاير منها شَرَرُ الحِقْد وقال :

— « والآن ماذا تريدون منّى؟ » فقال « جاك » :

— « أن تقدِّم لنا أوّلاً العقد الذى نزل لك فيه السيد " ويكفيلد " عن جميع ماله ، وأن تعيد ثانياً حتى البنس الأخير جميع ما سرقتَ وسلبْتَ . » فقال « هيب » :

— « دعونى أفكّر . » فقال « جاك » :

— « لا بأس ، ولكنك ستدخل غرفتك ولن تخرج منها حتى توافينا بقرارك الأخير . وسنحرسُ هذه الغرفة فلاتفكر فى الفرار إلا إذا شئت أن يتولّى رجالُ الشرطة هذه الحراسة عنّا . »

فأذْعَنَ « هيب » لرأى جاك ، فدخل غرفته وأقفلنا عليه الباب ، وأرسل « مكوبر » يدعو زوجته إلينا ورجا منا أن نشهد مصالحتهما ، فجاءت ومعها جميع أولادها ، فتم عقد الصلح بين الزوجين ، وكنا

جميعاً شهوداً عليه ، ولما رأت عمّتى ذلك الجيش الجرّار من الأولاد سألت « مكوبر » قائلة :

ــ « لماذا لا تهاجر يا سيّد " مكوبر " إلى " أستراليا " بدلاً من أن تجرّ أثقال الحياة فى " إنجلترا " ؟ » فقال :

ــ « لقد كان ذلك حُلْمِى فى عهد الشباب وما زلت أحلم به ، ولكن المال هو الذى يُعْوِزنى ! » فقالت عمّتى :

ــ « إنّنا مدينون لك بالشىء الكثير ، ولسوف نوفّر لك ذلك المال . »

فقالت زوجته تخاطب عمّتى :

ــ « وهل حالُ ذلك البلد ممّا يسمح لرجل ممتاز فى مواهبه مثل زوجى ، أن يعلو فى السلّم الاجتماعى ؟ » فقالت عمّتى ضاحكة : وقلّما تضحك :

ــ « إنه البلد الذى يحتاج إلى مواهبِ زوجك وكفايته ! »





٩

أكتبُ هذه السُّطور وأنا أذْرف الدمع السَّخين على زوجتى «دورا» لوردة الصغيرة، فبعد أن أعمل الداءُ سهامه فى جسمها الغَضّ، لفظتْ نفاسَها بين ذراعى « أنيبيس » وخلَّفتنى للهمّ والغمّ والحسرات، حتى سودَّتْ الدُّنيا فى ناظرى، ودَبّ اليأس إلى قلبى، فأصبحت لا أرى لخلاص من دنياى المثقلة بالشُّجون والأحزان إلاّ بالموت وسُكْنى القبور.

نصحونى بالسّفر التماساً للعَزاء والسُّلْوان، ويغلُب على ظنى أن «أنيبيس» ى التى أوحَتْ بذلك، فقد لمسنا جميعاً منها فى أيّام محْنَتنا الكبرى محبّة ' توصف، ورعاية لا تُذْكر إلا مشفوعة بأجمل آيات الشكر. ولست

أنسى كذلك صديقى « جاك » فقد غمرنى ببالغ حبّه ووداده ، وشاطرنى الأسى ، وحملنى على الصَّبْر والتّأساء .

ولقد قرّرت السّفر نزولا عند نُصْح النّاصحين ، ولكننى تمهّلتُ فيه حتى أشهد آخر فصلٍ من رواية « هيب » على حدٍّ تعبير « مكوبر » ، وأشهد كذلك رحيل المهاجرين إلى « أستراليا » .

وفى صباح أحد الأيام ، رحلتْ قافلتنا المؤلفة منى ومن « جاك » ومن عمتى و « أنييس » إلى لقاء « مكوبر » ، فرحّب بنا وأخرج من جيبه مفكّرة أخذ يقلب بعض صفحاتها ، ثم قال فى هدوء ورزانة :

ــ « من حيثُ أن فريقاً من الأصدقاء ينصحنى بالهجرة إلى "أستراليا" فقد قبلتُ النصيحة ، وسوف أرحل فى أقرب وقت مستطاع ، ومن حيث أن هؤلاء الأصدقاء وفى طليعتهم الآنسة " تروتوود " قد كفلوا لى نفقات السفر لُطْفاً منهم وفضْلاً ، فيسرّنى أن أقبل المبلغ على سبيل القَرْض ، على أن أفى به نَسِيئةً فى ثلاثِ دفعات : الأولى بعد ثمانية عشر شهراً ، والثانية بعد سنتين ، والثالثة بعد سنتين ونصف سنة . » فقالت عمّتى :

ــ « افعل ما بدا لك ، وعُدَّ المبلغ قَرْضاً أو هِبَة ، فكلُّنا نازلون عند رأيك ورغبتك ! »

فقال « جاك » :

ــ « يسرّنى أن أعلن على رؤوس الأشهاد أن السّيد " مكوبر "

قد خدمنا وخدم الحقّ والإنصاف والعدالة خدمة جُلّى ، ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أشيد أيضاً بفضل السّيد « ديك » فمنذ أن انتهت مهمته فى حراسة " هيب " والحيلولة دون فراره ، وهو يبذل الجهد الوافر فى رعاية مصالح السّيد " ويكفيلد " فأعاننا على البحث فى الدفاتر والسجلات ، ونَسَخ جميع الوثائق التى احتجنا إلى الحصول على صُوَرٍ منها ، وقام بكثير من المساعى الصغيرة التى سهّلت علينا العمل . » فقالت عمّتى :

— « إن السيد " ديك " رجلٌ ممتاز ، وكثيراً ما أطنبتُ فى الثّناء على مواهبه . . . أتذكر ذلك يا " داڤيد " ؟ »

ولم يترك « جاك » لى الفرصة حتى أجيب عن سؤال عمتى مؤمّناً على كلامها ، بل بادر إلى توجيه الخطاب إلى « أنييس » وقال :

— « يُسْعِدنى يا آنسة " ويكفيلد " أن أنهى إليك أن صحة والدك قد تحسنت تحسناً ملحوظاً فى أثناء غيابك ، بعدما زال عنه عبء الهمّ وكابوس المخاوف . ولكنّ أحواله المالية بعد كل الجهد الذى بذلناه فى استرجاع ما أمكن استرجاعه ، ليست على ما يرام ، فلن تترك له شيئاً يُذْكر بعد تصفية ديونه . » فقالت « أنييس » :

— « حَسْبى أن يكون فى صحّة وسلامة ، ولسوف أعرف أن أوفّر له شيخوخة هانئة ، فأنا بَعْدُ فى مقتبل العمر ، ولن يضيرنى العمل وكسب رزقنا بعَرَق الجبين . » فقال « جاك » يخاطب عمّتى :

ـ « والآن يا آنسة " تروتوود " يجب أن نعنى برد ثروتك إليك . »
فقالت عمتى متنهدة :
ـ « إن كانت قد تبخَّرت فى الهواء ، فسوف أستسلم لمشيئة الأقدار ، وإذا كانت لا تزال فى حيز الوجود فيسرّنى أن أستعيدها . » فقال «جاك» :
ـ « إنها فى حيِّز الوجود يا سيّدتى وقد استطعنا أنا والسيد " مكوبر " أن ننتشلها من براثن الذئب " هيب " » فقالت عمّتى :
ـ « على بركة الله ! ذلك خيرٌ وأبقى ! ولكن ماذا جرى للذّئب الضارى ؟ » فقال « جاك » :
ـ « كل ما أعرفه عنه أنه عاد إلى " لندن " » فقالت عمتى :
ـ « حملته الأبالسة ! »

ثم ابتعدنا نحن جميعاً عن السيّد « مكوبر » قليلاً ، وتداولنا معاً ، وقرّرت عمتى أن تنقده خمسمائة جنيه يستعين بها على سفره وعلى مزاولة نشاطه فى مَهْجَره .

وبعد أيّام قلائل كنا جميعاً على رصيف ميناء « لندن » نودع السيّد « مكوبر » وزوجته وأولاده ، وتشاء الأقدار أن يسافر معه على الباخرة نفسها شقيق « بيجوتى » ومَنْ حواه منزله ، فقد ضاق بهم الرزق فى الوطن فرحلوا يلتمسونه فى الأرض البعيدة . أمّا الدموع الغزار التى سكبتها « بيجوتى » فى وداع شقيقها فلن أنساها أبَدَ العمر .

ورحل المهاجرون، وعُدْتُ أنا إلى الحزن والأسى أجرّ أثقالهما ، فرحلتُ بعد أيام إلى إيطاليا وسويسرا أطوفُ منهما في القرى والمدن والجبال ، وأشغل نفسى من الصّباح إلى المساء بالكتابة والتأليف ، فكتبت قصةً استوحيتها من أحزانى وآلامى ، وبعثتُ بها إلى صديقى « جاك » فتولّى نشرها ، وأردَفْتُها بثانية وثالثة فاكتسبت من وراء ذلك مالاً ونلتُ شهرة واسعة وصل إلىّ صداها مع الركبان وجماعات السيّاح . واسترحتُ قليلاً من عَناء التأليف ، ثم أقبلت على وضع قصّة طويلة ، وكنت قد وصلت إلى منتصفها عندما قرّرت العودة إلى إنجلترا بعد غياب دام ثلاثة أشهر.

نزلتُ من الباخرة فى ليلة من ليالى الخريف الباردة العاصفة ، وكان الظلام شديد الحَلَك ، والمطر ينهمر كمن أفواه القِرب ، ولم يكن فى استقبالى أحدٌ من معارفى وأصدقائى لأنى كنت أبلغتهم أنى عائد — عشيةَ عيد الميلاد ، فسبّقْت عودتى لأسرّهم بالمفاجأة .

وكنتُ علمت من رسائل « جاك » إلىّ أنه افتتح مكتباً للمحاماة باسمه ، وأن بعض المتقاضين قد عرفوا الطريق إلى مكتبه ، وأنه قد انتقل إلى مسكن جديد لائق لأنه يرجو أن يتزوج عن قريب « بخير فتيات العالم » وكنتُ علمت من رسائل عمّتى أنها عادت إلى قريتها ، ومن رسائل « أنييس » أنها موفّقة فى العمل الذى اختارته لنفسها وهو التدريس فى إحدى كليات البنات .



خرجتُ من الميناء فلم أجد مركبة تقلُّني إلى حيثُ أشاء، فوضعت حقائبي في مخزن الودائع ، وسِرْت على قدمي إلى منزلنا فبدّلت ملابسي المبلّلة بالمطر ، ونزلت أسعى إلى منزل صديقي « جاك » .

توهّمتُ أن ألقى المنزل الجديد اللائق الذي حدثني عنه صديقي «جاك» في حيّ متوسط من أحياء المدينة ، وعلى جانبٍ ولو متواضعٍ من فخامة البناء مادامت الدنيا قد بسمتْ له ، وما دام المتقاضون قد عرفوا الطريق إلى مكتبه ، ولكن حزّ في صدري أن أرى أن منزله الجديد اللائق هو من حيث الحيّ والبناء ، في المنازل التي لا ترقى إلى صفة التواضع ، وإن ارتقى درجة أو درجتين عن منزله القديم في سلّم المجتمع ، فأدركت أن إقبال الدنيا على المحامي ، أمر تتقطّع دونه الأعناق ، ويتطلّب عشرات السنين .

طرقتُ الباب ففتحه لي رجلٌ قصير القامة تدلُّ ملامحه على أنه يجمع بين وظيفة الكاتب والخادم معاً ، فأوصلني إلى صديقي « جاك » وكان جالساً إلى منضدة ازدحمت فوقها الأوراق والوثائق، وغرق هو بين أمواجها فرفع رأسه على صوتِ وقع الأقدام ، فما كاد يلمحني حتى خف إليّ معانقاً مقبّلاً وصاح :

— « ” داڤيد “ ؟ ما هذه المفاجأة السارّة ؟ » فقلت :

— « أكلُّ شيء معك على ما يرام يا ” جاك “ ؟ » فقال :

— « كل شيء على ما يرام . »

فعدنا إلى العناق باكيين من فرحنا باللقاء ، وعاد يقول :

— « ما أشدَّ سروري بلقائك يا "داڤيد" ! لقد أطلتَ علينا الغياب! الله في هذه السُّمْرة التي لوَّحَتْ وجهك ! »

أمَّا أنا فقد انعقد لساني بلقاء هذا الصديق الصدوق، فما فُهتُ بحرف ردًّا على سروره وفرحه ، فتابع هو الحديث قائلا :

— « آه يا صديقي العزيز . . . لقد أصبحتَ رجلاً طائرَ الشهرة ذائعَ الصيت . . . ولكن متى وصلت ؟ ولماذا لم تنبئني بموعد أوْبتك ما دمتَ قد عجَّلت فيها ورجعتَ قبل عيد الميلاد ؟ » فقلت :

— « يقولون : وما أحلى زيارتها إذا جاءتْ بلا وعْد . » فقال :

— « سامحك الله ... لو عجَّلت أياماً قلائل لكنتَ شهدت العُرْس . »

فقلت مدهوشاً :

— « أيّ عرس كنتُ شهدته ؟ » فقال متعجِّباً :

— « عُرْسي أنا . ألم تتسلم رسالتي الأخيرة ؟ » فقلت :

— « إذا كانت هي الرسالة التي تنبئني فيها بعرسك فهذه ولا شك لم أتسلَّمْها . » ثم أضفتُ قائلاً :

— « اقبل إذن أصدقَ التهنئات من أوْفَى صديق . . . ولكن أين عروسُك . » فقال :

— « هي هنا في الغرفة المجاورة . » وطفق يصيح بأعلى صوته :

— « " صوفى " . . . " صوفى " هذا صديقى " داڤيد كوبرفيلد " الذى طالما حدثتك عنه قد عاد . . . تعالى . تعالى . »

وأقبلت علينا شابة حسناء فى ربيع العمر فحييتها وهنأتها ، وبدا لى من حديثها وحركاتها أنها المرأة اللطيفة الذكية السعيدة ، فتمنيت لهما أصفى الأيام وأحلاها فقال لى :

— « أرأيت أنت نفسك أنها " خير فتيات العالم " كما كنت قد ذكرت لك ؟ » فقلت :

— « إنها فوق ذلك . . . لقد كذب الخبرَ الخُبْرُ . . . »

فاحمرت وجنتا « صوفى » حياء وسروراً ، وسر « جاك » أن يسمع منى هذا الإطراء والثناء على عروسه المحبوبة .

وشددت الرحال فى اليوم التالى إلى دار عمتى ، ونزلت عليها نزول الصاعقة ، وكانت تتناول الشاى هى والسيد « ديك » و « بيجوتى » العجوز الطيبة وقد أصبحت هذه مدبرة لمنزلها ، فاستقبلونى بالدموع والقبل .

وقضيت الليل أنا وعمتى نتناجى ونتحدث ، فأخبرتنى أن أخبار المهاجرين الواردة منهم تدل كلها على الرضى والحبور ، وأن السيد « ديك » يقضى معظم وقته فى نسخ كل ما تقع يده عليه ، وزادت على ذلك رأيها المعروف بأنه ما من أحد غيرها يستطيع أن يقدر السيد « ديك »

حقَّ قدره ، ثم سألتنى :

ـ « ألم تزر " أنيبيس " ؟ » فقلت :

ـ « كلاَّ يا عمَّتى ، فقد زرت « جاك » ليلة وصولى ثم سارعت إليك . »

فأخذتْ يدى فى يدها وقالت بلهجة رقيقة :

ـ « كان عليك أن تزورها أوَّلاً ما دامت غير بعيدة منك فى العاصمة ، فما عرفتُ فتاةً أصفى منها قلباً ولا أرجَحَ عقلاً ، ولا أصْدَقَ وداداً ! »

وفتحتْ لى عمّتى بكلامها الرقيق وأخْذِها يدى فى يدها وثنائها على « أنيبيس » آفاقاً جديدة من التفكير ، فسَرَحَ خيالى فيها ووقف عند فكرة رجعتْ بى إلى الماضى ، فقلت فى نفسى : لئن كانت « أنيبيس » قد أحبَّتنى محبَّة الشقيقة للشقيق ، لقد كان فى مقدورى أن أحوِّل مجرى ذلك الحب ، ولكن اندفاع الشباب وثوران القلب الجامح ، قد صرفانى عنها إلى غيرها ، وأصمَّا أذنى عن صوتِ قلبها ، بل عن تلميح عمتى فى بعض الأحيان .

وكانت عمتى تراقبنى وأنا مستسلمٌ إلى التفكير ، فالتزمنا كلانا الصمت قليلاً ثم قالت :

ـ « سترى أباها عندما تزوره قد ازداد بياضُ شعره ، ولكنه صحيحٌ

سليمٌ مُعافى جسماً وفكراً ، وستراها هي على ما عرفت من جمالها وحَنانها وطِيب عُنْصرها . »

فيا له من ثناء جميل على « أنيبيس » ! ويا له من عتاب مرٍّ لى ! يفهمنى أنى كنت قد ضللتُ السبيل ، فعادت عمّتى تقول والدَّمْعُ يملأ عينيها :

— « إن الفتيات اللواتى تُعَلِّمُهُنَّ وتغرس فِيهن مثل فضائلها ، سيكنّ ولا شك زهرات المجتمع . » فقلت بصوتٍ عال وأنا أحسبنى أهمس فى نفسى :

— « ألم تصادف " أنيبيس " . . . » فقالت عمتى مقاطعة :

— « تصادف مَنْ ؟ تصادف ماذا ؟ » فقلت :

— « رجلاً يرغب فى تزوُّجها ... » فقالت عمّتى فى كبرياء المستنكر :

— « طلب يَدَها عشرات . . . بعد رحيلك . » فقلت :

— « لا شكّ فى ذلك ... ولكنها هل وجدت الرجل الذى يَليق بها ؟ فمثل " أنيبيس " تعرف أن تُحْسِنَ الاختيار . »

فسكتت عمتى هنيهة معتمدة ذقنَها بيدها ، ثم رفعت رأسها وقالت :

— « يخيَّل إلىّ أن لها حبيباً تؤثره على غيره . » فقلت :

— « وهل يبادِلها ذلك الحبيب الحبّ ؟ » فقالت عمّتى جادّة :

— « لا أعرف ، وليس من حقّى أن أؤكد ما فُهِمْتُ به ، فما حدّثَتْنى

بذلك قطّ ، وإنما هو أمر أتخيّلُه . »

ثم نظرتْ إليّ نظرة الواجف القَلِق ، فأيقنتُ أنها توغّلتْ فى أعماق نفسى ، ثم أنهينا الحديث وتوجّه كلٌّ إلى غرفته .

وفى اليوم التالى رحلتُ عن القرية عائداً إلى العاصمة ، وذهبت عند الأصيل إلى منزل « أنييس » وطلبت من الخادمة التى فتحت لى الباب أن تبلغ الآنسة « ويكفيلد » أن بالباب رسولاً من قِبَلِ صديق لها يطوف بالبلاد الأوربية ، فأدخلتنى إلى البَهْو ، وذهبت تبلغ سيّدتها ، فمضيتُ إلى النافذة أسرِّحُ منها الطَّرْف فى المنازل المقابلة ، فلما أحسستُ الباب ينفتح ورائى ، ارتجفتْ كلٌّ أوصالى ، فالتفتُّ فرأيتُ « أنييس » تنظر إليّ نظرتها الهادئة الجميلة وهى واقفةٌ مضطربة فقلت :

— « عذراً يا " أنييس " إن أنا فاجأتك بهذه الزيارة . » فقالت :

— « إنى سعيدة برؤيتك يا " داڤيد " . » فقلت :

— « بل أنا السعيد بالعثور عليكِ ولو بعد حين . »

فسكتتْ وسكتُّ برهة قصيرة ، ثم جلستْ وجلستُ إلى جانبها ، ورأيتُ فى وجهها الصبيح أسارير الفَرِح المغتبط ، وقسمات الشقيق الحنون ، فاختلجتْ جوانحى وعَصَتْنى الألفاظ حتى فتح الله عليّ فقلت لها :

— « حدثينى عنك يا " أنييس " كيف حالك وماذا تفعلين ؟ »

فقالت فى بسمة الملائكة :

ـ « وماذا تريدُ أن أحدِّثك عنه . . . إن والدى والحمد لله فى صحة جيدة ... ومشكلاتنا قد تبدّدت . . . وأنت أعلَمُ منى بكل شؤوننا . »

فقلتُ متسائلاً :

ـ « بكل شؤونكم؟» فنظرتْ إلىّ فى شىء من الدّهَش والاضطراب

فقلت :

ـ « أليس هناك شىءٌ تُفْضِين به إلىّ يا شقيقتى العزيزة ؟ »

فاختلف وجهُها بين الصُّفْرة والحمْرة، ثم تبسّمتْ تبسُّمَ الحزين، وهزّتْ رأسها سلْباً، وكان الغرض من سؤالى أن أمهِّد لها السبيل فى طَرْق الموضوع الذى حدّثتنى عنه عمّتى ، وإن آلمنى سماعه ، فلما رأيتُ اضطرابها عدلتُ عنه وقلت :

ـ « أعملك مرهق يا " أنيبيس " ؟ » فعادت إلى سكونها واطمئنانها وقالت :

ـ « لذّةُ التدريس تجبُّ المتاعب . »

وسرّنى أن أرى فى هذه اللحظة والد « أنيبيس » يدخل البهو، فسارعت إلى تحيته، فغمرنى بأبلغ آياتِ الوداد، وشكَرَ الله على النعمة التى أسْبَغَها عليه باسترجاع صحته وسلامته، وأخذ يطنب فيما تحمّلته ابنته من مشاق فى العناية به والسّهر عليه ، ثم غادرنا إلى مخدعه فسألتنى « أنيبيس » قائلة :

ـ « أتنوى القيام برحلة أخرى يا " داڤيد " ؟ » فقلتُ وقد آليّت أن لا أفاتحها فى أمر عاطفتى المتّقدة ، خوفاً من أن أعود خائباً ، فأفقد ما تحيطنى به من مودّة الشقيق .

ـ « وما رأى شقيقتى فى ذلك ؟ » فقالت :

ـ « أرى يا " داڤيد" أن تتفرّغ للأدب ، فشهرتك ونجاحُك فيه حتى اليوم يحتّمان عليك الاستمرار فى الكتابة والتأليف ، ويسرّنى أن أسمع عنك دائماً أطيبَ الأنباء . » فقلت :

ـ « أنا غرسُ يديك يا ملَكى الحارس ، ولسوف أنزل دائماً عند نصحك وإرشادك . أتذكرين يوم زرتِنى فى منزلى وكانت " دورا " على قيد الحياة ، فوقفنا معاً إلى النافذة وأريتنى السماء ؟ » فقالت والدّمْعُ يترقرق فى عينيها :

ـ « رحمها الله ! إنها كانت مثال الجمال واللطف والدّعة ، فكيف أنساها ؟ » فقلت :

ـ « لقد ردّدْتُ فى نفسى غيرَ مرّة ، أنك أرشدتنى دائماً إلى السّماء ، وأنك قُدْتِ خطواتى أبداً إلى أهداف الكمال . »

فشكرتنى على حسن ظنّى بها ، وقالت إنها لا تستحقّ كل ذلك الثناء .

وختمتُ هذه الزيارة بقلب أذكت فيه « أنيبس » نار الحماسة

والنشاط ، فودّعتها محيياً شاكراً ، وانكببتُ منذ تلك اللحظة على القصّة الطويلة التى كنتُ قد بدأت كتابتها ، فأتممتها فى ثلاثة أشهر ، وكان وجه « أنييس » لا يفارقنى فى صباحى ومسائى ، وفى غدوِّى ورَواحى ، ينفخ فىّ روحَ العزم إذا تعبتُ وكللت ، ويفتح لى مغاليقَ الإلهام إذا جفّ خيالى وكبا فكرى ، ويوم نفضتُ يدى من القصّة ، وأرحت قلمى ، رضيتُ عن عملى ، وبعثتُ إلى « أنييس » على أجنحة النّسيم بأسْمَى عواطفِ الشّكران . . .





١٠

مرّ على رجوعى إلى « لندن » نَحْوٌ من شهرين، واقتربنا من عيد الميلاد ، ولقيت « أنييس » غير مرة فى هذه الأثناء ، وتوالى علىّ ثناءُ المعجبين ، ولكننى كنت أوثر عليه مديح « أنييس » وتشجيعها ، وعاد الحزن مع هذا يقرضُ بِنابِه جوانحى وفؤادى ، فكنت أحاربه بالعمل المُجْهِد المُضْنِى ، وبالاستسلام أحياناً إلى الرياضة .

وكنتُ إذا قرأتُ على « أنييس » بعض الصفحات مما أحبِّرُ وأدبِّج ، ورأيتها تُصغى إلىّ ضاحكةً حيناً وباكية حيناً آخر ، أو سمعتها تشترك فى هذا العالم الذى تخلقه يراعتى محتفيةً به مكترثة له ، علمتُ أيّة حياة

كنتُ أحياها لو تنبهتُ فيما مضى إلى هذا الكنز الثمين، ولكننى أدركت الأشياء بعد فوات الأوان، وبعد تزوجى « دورا » ولات حين ندامة ...

وكانت عمتى تشاطرنى مثل هذه الأفكار، ولكنها قد أمسكتْ عن العودة إلى الخوض فيها، مدركةً ما يجولُ فى خاطرى وما يحملنى على السكوت، وكانت قد أقبلتْ إلى « لندن » منذ أيام لتقضى فيها عيد الميلاد معى، فرأتْ يوماً تِلالاً من الأوراق مكدّسةً فوق مِنْضدتى فقالت لى :

— « إنك لتقضى الساعات الطوال فى عَناء التأليف، و والله ما قَدَرْتُ قطُّ هذا العَناء أيامَ كانت القراءة تستهوينى إلا بعد أن رأيتك تعمل وتجدّ. »

فقلت لها :

— « قد يُلاقى القارئ أحياناً مثل هذا العناء يا عمّتى، وكيفما كان الأمر، فالمؤلِّف يجدُ فى عمله مُتْعة ومسرّة. » فقالت :

— « نعم، متعةَ المجد والشهرة، ومتعةَ أشياءَ أخَر ! » فقلت :

— « أتعلمين شيئاً جديداً يا عمّتى عما حدّثْتِنى عنه من غرام "أنييس" بفارس أحلامها ؟ » فحملقت فىّ طويلاً وقالت :

— « يخيَّلُ إلىّ أنى أعلم. » فقلت :

— « أوَثَبَتَ لك ما كنتِ تظنين وتتخيّلين ؟ » فقالت :

— « أجَلْ لقد ثبت لى يا "داڤيد" ! »

وأخذتْ تطالع في أسارير وجهي المعاني التي تدور بِخَلَدي ، ثم قالت :

ـ « نفسي تحدثني أن " أنيبيس " ستتزوج عما قريب . » فقلت :

ـ « باركها الله ، وكتب لها السعادة ! » فقالت :

ـ « نعم كتب الله لها ولزوجها السعادة . »

وشاطرتُ عمتي دعاءَها وأمانيها ، وأوعزتْ إليَّ النفس أن لا بُدَّ لي من حديثٍ صريح مع « أنيبيس » نضع فيه الأمورَ في نِصابها ، فذهبت إلى زيارتها في صباح اليوم التالي فألْفَيْتُها وحدها مستفيدة من عُطْلة الدراسة للانهماك فيما يحلو لها من المطالعات ، وكان كلام عمتي لا يزال يملأ خاطري فأهَبْتُ بشجاعتي وأفضيتُ لها بمكنون صدري ، وأسفر حديثنا عن صواب ما رأت عمتي من قرب زواج « أنيبيس » ، ومنذ تلك اللحظة أصبحت « أنيبيس » خطيبتي .

فذهبنا معاً إلى لقاء عمتي ، فأخبرتني « بيجوتي » أنها في مكتبي ترتِّب لي أوراقي ، فدخلنا المكتب وألقيتُ نظرةً سريعة على مِنْضدتي ، فإذا هي بما حفلت به من أوراق وكُتُب ، على جانب عظيم من الترتيب والنِّظام ، وإذا عمتي قد غرقت في مقعد طويل وفي يدها كتاب تطالعه ، ونظّارتُها في منتصف أنفها ، فرفعتْ نظّارتَها عن عينيها ، وأخذت توزع نظراتِها بيني وبين « أنيبيس » لعلَّها تستشفُّ من قسماتنا ما يحقِّق أمنيَّتها ، فما لقيتْ

منّا إلا وجهاً جامداً لا يُفْصِح عمّا فى سريرتنا ، وكنتُ قد اتفقتُ و« أنييس » على هذا إمعاناً فى مفاجأة عمّتى .

وحضر السّيد « ديك » فى هذه الأثناء فتوجّهْنا كلنا إلى المائدة لتناول طعام الغداء ، وانتظرتُ حتى فرغنا من الأكل وانتقلنا إلى البهو فقلت أخاطب عمّتى :

— « نسيتُ يا عمتى أن أخبرك أنى حدّثتُ " أنييس " بما أنهيتِ به إلىّ من ظنونك . »

فاحمرّ وجه عمتى ، ونظرتْ إلى شَزْراً ، فاستأنفتُ حديثى قائلاً :

— « اطمئنى بالاً يا عمّتى فإن " أنييس " غير شقيّةٍ بغرامها . »

فازداد وجهُ عمّتى احمراراً كمن شعر بانهيارِ صرح أحلامه ، فرأيت من صَواب الرأى أن أختم مداعبتى ، فأمسكت بيد « أنييس » واقتربنا من مقعدها وركعنا عندها ، ففهمت أنّنا خطيبان ، فانهالت علينا تقبّلنا وتزجرنا حيناً على أننا كتمنا عنها هذا الخبر المفرح ولو ساعاتٍ قلائل . وأقبل علينا السّيد « ديك » و « بيجوتى » يغمراننا بالتهنئات واستسلمنا جميعنا إلى دَواعى الأفراح .

واحْتُفِل بزواجنا بعد أسبوعين ، وشهده النخبة القليلة من أصدقائنا ، ولما خلونا أنا و « أنييس » معاً قالت لى :

— « أما وقد أصبحت زوجى فأرى لزاماً علىّ أن أبوح لك بسرّ كنتُ

غيّبتُه فى صدرى . » فقلت :

— « هاتيه يا حبيبتى ! » فقالت :

— « إنه سرٌّ يرجعُ عهدُه إلى الليلة التى انتقلتْ فيها "دورا" إلى بارئها . أتذكر أنها طلبت منك أن تأتى فتصحبنى إليها . » فقلت :

— « نعم أذكر . » فقالت « أنيبس » :

— « أخبرتنى أنها تترك لى بعدها أمراً من الأمور ، أتدرى ما هو ؟ »

وحَسِبْتُنى حَزَرْتُ ذلك الأمر ، ولكننى التزمتُ الصمت ، فتابعتْ « أنيبس » حديثها وقالت :

— « طلبتْ منى أن ألبّى رغبةً أخيرة لها . » فقلت :

— « وما هى ؟ » فقالت :

— « أن أجىء يوماً فأحلَّ محلّها عندك . »

واستسلمت « أنيبس » إلى البكاء واستسلمتُ أنا أيضاً إليه ، مع أننا كنا سعيدَيْن كلَّ السّعادة .

وتوالت الأيّام ومرّ على زواجنا عشرُ سنوات ، فازددتُ شُهْرةً ومالاً ، ورزَقَنا الله بثلاثة بنين ، وكانت الهناءة مخيّمة على حياتنا .

وفى مساء أحد أيام الربيع ، بينما كنتُ أنا و « أنيبس » جالسيْن إلى الموقد ومن حولنا أبناؤنا الصغار يمرَحُون ويلعبون، أُبْلِغْتُ أن غريباً يرْغَبُ فى مقابلتى ، ويقولُ إنه آتٍ من سفر بعيد ، فسمحتُ بالمقابلة

فدخل علينا بعد قليل رجلٌ شيخٌ أبيض الشعر ولكنه مرفوع القامة قويّ الأجلاد فتبيّنْته وخففتُ إليه على الفور أحيّيه وأرحب به وأقول :

ــ « أهلاً وسهلاً بالسيّد " بيجوتى " ! »

وكان السيد « بيجوتى » . . .

وبعد أن استتبّ به المقام ، وأجلس الأطفال الصّغار على رُكْبتيه يداعبهم ويلاعبهم قال :

ــ « إنه ليومٌ سعيد أراك فيه يا سيد " كوبر فيلد " وأرى معك زوجتك الكريمة ! » فقلت :

ــ « وإنى لسعيد جدّاً بمرآك يا سّيد " بيجوتى " . » فقال :

ــ « وأرى هذه الزهرات الجميلة من أبنائك . . . لم تكن أنتَ أكبرَ من كبيرهم يا سيّد " كوبر فيلد " عندما رأيتك لأوّل مرّة . » فقلت :

ــ « لقد تغيرتُ أنا وكبرتُ يا سّيد " بيجوتى " أمّا أنت فلم تتغيّر ولم تكبر ، فما زلتَ على ما عرفتك عليه من القوّة والسلامة . »

ونادت « أنييس » المربية فذهبت بالأطفال إلى أسِرّتهم بعد أن حيّوْنا وقبّلناهم ، ثم التفتت « أنييس » إلى السّيد « بيجوتى » تسأله :

ــ « أجئتَ إلينا وحدك يا سّيد " بيجوتى " ؟ » فقال :

ــ « نعم يا سيّدتى . قطعت إليكم رُقْعةً واسعةً من البحار ، ولكننى لست غريباً عن الماء ولا سيما إذا كان مالحاً . » فسألته « أنييس » :



ـ « أتنوى اجتياز هذه الرقعة الواسعة من البحار مرة أخرى . »

فقال :

ـ « نعم يا سيدتى ولكننى حرصتُ على رؤية السيد "كوبرفيلد" ورؤيتك يا سيدتى قبل أن يدبّ إلىّ العجز والشيخوخة المُقْعِدة ، فما من شىء فى الحياة يعادل التّمتُّع برؤيَة الأصدقاء الأوفياء الكرماء . »

ثم أخذ يقصّ علينا حياته فى « أستراليا » تلك البلاد النائية ، وعرفنا منه أنه لم يكتسب ثروةً طائلة ولكنه بحمد الله هانئٌ ميسور ، وأنه عمل جادًّا جاهداً فكافأه الله على عمله ، فسمعت حديثه مغتبطاً وقلت له :

ـ « والآن حدِّثْنا عن السّيد "مكوبر" ولعلك تعلم أنه وَفَى المبلغ الذى نَقَدناه إياه قبل سفره ، وأبى إلا أن يعدّه قَرْضاً ، فما من شك أنه على حال من اليُسْر والتوفيق . »

فمد السّيد « بيجوتى » يده إلى جيبه ، وأخرج منه حزمة أوراق مطويّة طيًّا جميلاً ونشر منها صفحةً من جريدة وقال :

ـ « بدأ السيد "مكوبر" حياته هناك فى فِلاحة الأرض مثلنا ، وانتهى به الأمر إلى أن يصبح اليومَ قاضياً فى مدينة "أدلائيد" . »

فصحت مُعْجَبَاً :

ـ « أيجلس الآن فى مِنَصَّة القضاء ؟ »

وأشار « بيجوتى » بإصبعه إلى أحد أنهار الجريدة التى نَشَرها من

حزمة أوراقه، وقدّم الجريدة إلىّ فقرأت فيها نبأ حفلٍ كبير أقيم تكريماً للقاضي النزيه السّيد « مكوبر » شهده علية القوم، وألقيتْ فيه الخُطَب تمجيداً للمحتفى به وثناءً على حَصافته ونزاهته وصائب أحكامه، وأشارت الجريدة إلى أن المحتفل به قد شكر الحاضرين بخطاب بليغ تتألّقُ فيه المعانى تألُّقَ أسلوبه الجميل، فشرب القوم نخبه ونخب زوجته الكريمة ونخب أبنائه، وما فيهم إلا كلُّ فتّى نابغ ذكىّ، وكل فتاة حسناء تتحلّى بجمال الخَلْق وكمال الخُلُق.

أدهشنى هذا كله وسرّنى، ثم دلّنى السيد « بيجوتى » على نهر آخر من الجريدة قرأتُ فيه ما يلى :

« إلى " داڤيد كوبرفيلد " المؤلف العظيم

لئن حرمتُ رؤيتك أيها الصديق الكريم طولَ هذه السنوات التى باعدت فيها بيننا الأيام، وفصلتنا البحار الزّاخرة الهدّارة، لقد سرنى أن أراك دائماً بعين الفكر والخيال، وأن أتتبّع نهوضك إلى المجد والعلا فى جناحىْ نَسْرٍ قوىّ لا يحلّق إلا فى أعالى القمم، كما سرنى أن أنعم بهذه المآدب الفكرية التى أدّبها للنّاس أجمع قلمُك الفيّاض.

وإنى بلسان المهاجرين، وبلسان الإنسانية جمعاء، أبعث إليك مع صديقى وصديقك السيد " بيجوتى " الراحل إلى الوطن لفترةٍ قصيرة، أصدقَ التحية، وأسمى آيات الشكر، وأبلغ الثناء على نبوغك وعبقريّتك.

ومهما ابتعدنا عن أرض الوطن ، فقلوبنا معلّقة به ، ونفوسنا فخورةٌ بالنّابغين النّابهين من أبنائه ، فاستمرّ أيها النّسر العظيم فى تحليقك ، توفّرْ للعالمين عامة ، ولأصدقائك من سكان " أستراليا " خاصّة مطيراً جميلاً فوق سُحُب الفكر ، يتبعونك فيه على أجنحة المُتْعة والفائدة وفيهم صديقك القديم

القاضى " مكوبر " . »

واستضفنا السّيد « بيجوتى » عندنا طول إقامته « بلندن »ولم تزد عن شهر ، وأقبلت عمّتى وشقيقة « بيجوتى » تزورانه وتتمتعان بلقائه ، وحينما قرّر الإبحار عائداً إلى مهجره ، ودّعناه أنا و « أنييس » وحمّلْناه إلى أصدقائنا هناك عَطِرَ السلام .

* * *

تلك هى قصّتى ، فكلّما التفتُّ بعين البصيرة إلى الوراء قبل أن أختم هذه الصفحات ، رأيتُنى و « أنييس » إلى جانبى نتابع رحلتنا فى طريق الحياة ، وكثيراً ما أسمع على طول ذلك الطريق أصواتاً عزيزة علىّ .

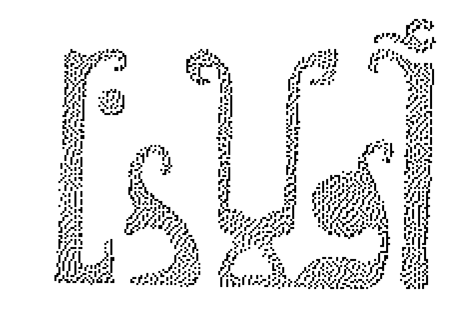
والآن وأنا أكاد أفرغ من مهمّتى ، تجيش الذّكريات فى صدرى فلا أستطيع لها دَفْعاً ، وفى وسط السّماء التى تتألق فيها نجوم هذه الذكريات ، كوكبٌ ساطع يغمرنى بنوره السماوىّ ، إنه وجه ملَكى الحارس وجه زوجتى « أنييس » .

وقبل أن أريح القلم التفتُّ إلى يميني فوجدتها كعهدى بها جالسة إلى جوارى مشرقةَ الوجه بسّامة العينين ، إن المصباح يكاد ينطفئ ، والفجر يكاد يلوح ، و « أنيبيس » التى لولاها ما كنتُ شيئاً مذكوراً ، جالسة فى صمت وسكون إلى جوارى يمدّنى حبها بالعزيمة ، وينير لى وجهها الوضّاح سبيل الفوز والنجاح فى هذه الحياة. . .



رقم الإيداع	١٧٢١ / ١٩٩٤
الترقيم الدولى	977 - 02 - 4336 - 1 ISBN

١ / ٩١ / ٣٨٥
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



مجموعة طريفة يختص كل كتاب منها بقصة واحدة تفيض بالمغامرات والحوادث العجيبة المملوءة بآيات البطولة والشجاعة والإقدام.

ظهر منها:

١ - عمرون شاه
٢ - مملكة السحر
٣ - كريم الدين البغدادي
٤ - آلة الزمن
٥ - الأمير والفقير
٦ - كتاب الأدغال
٧ - بينوكيو
٨ - نبوءة المنجم
٩ - روبن هود
١٠ - دون كيشوت
١١ - ايفنهو
١٢ - جزيرة الكنز
١٣ - كنوز الملك سليمان
١٤ - سجين زندا
١٥ - الزنبقة السوداء
١٦ - مون فليت
١٧ - مقبرة الأفيال
١٨ - الربان بلود
١٩ - تيودورا
٢٠ - أوليفر تويست
٢١ - دافيد كوبر فيلد
٢٢ - فى مهب الريح
٢٣ - الفخ الذهبى
٢٤ - عودة المحارب
٢٥ - حصان طروادة
٢٦ - نساء صغيرات
٢٧ - توم سوير
٢٨ - الأربعة الذين سرقوا الزمن
٢٩ - الربان الجرىء
٣٠ - العم نعناع
٣١ - أم حنان
٣٢ - كوخ العم توم

٥٩٠٠